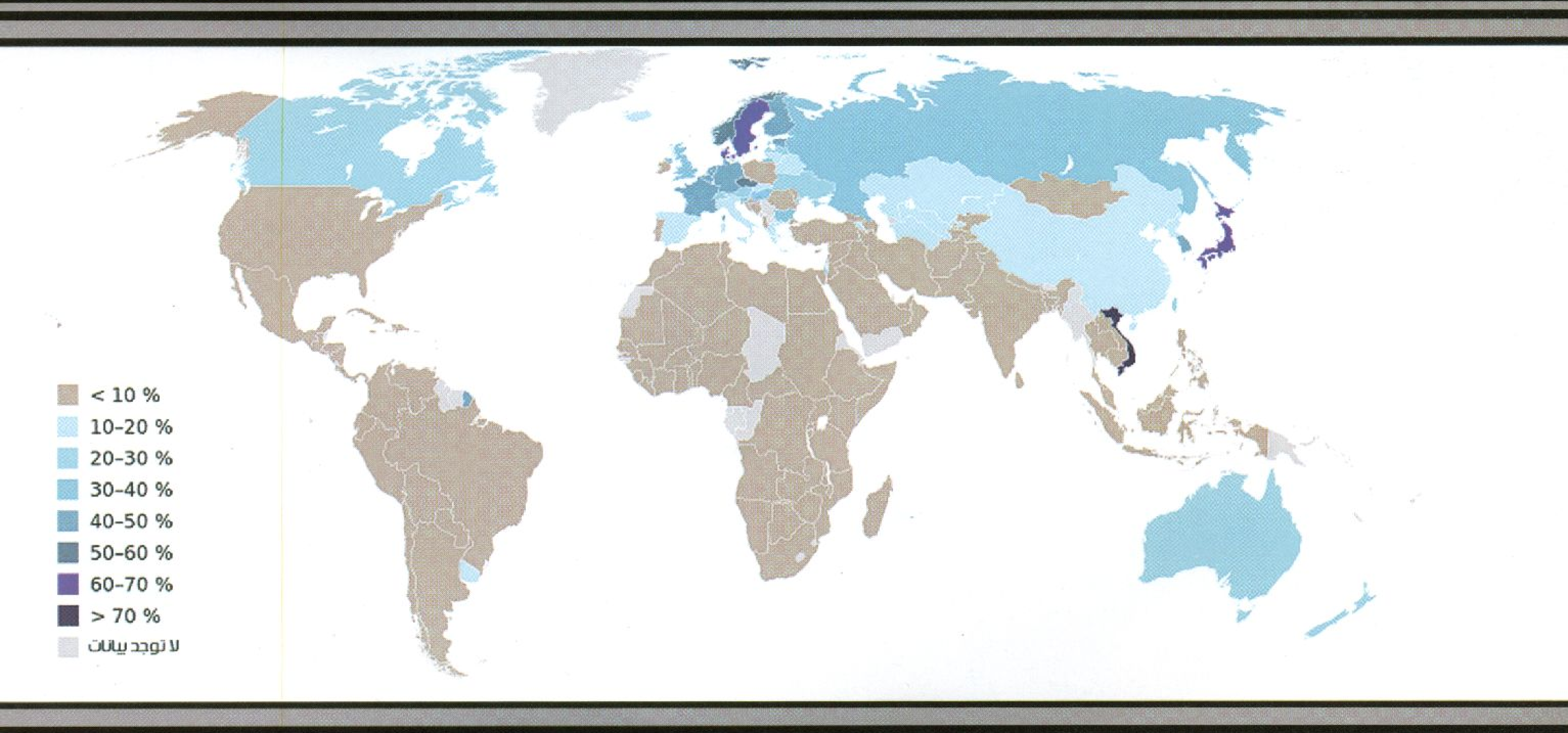
حوار
الإيمان والإلحاد

لفيفٌ من المفكرين والعلماء

دراسة وتقديم: أ. د. محمد عمارة

الأزهر

www.AlazharMag.com



الإلحاد في العالم

المصدر: ويكيميديا



العلامة محمد فريد وجدي

الدكتور أحمد زكى أبوشادى

الدكتور إسماعيل أدهم

دراسة وتحقيق

أ. د. محمد عمارة

هدية جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أطراف هذا الحوار- الذى دار بين الإيمان والإلحاد- فى ثلاثينيات القرن العشرين- والذى جاء نموذجا للموضوعية والاستنارة، والتحلى بآداب البحث والحوار والمناظرة- هم ثلاثة من الباحثين والمفكرين والعلماء:

-١-

أولهم الدكتور الطبيب أحمد زكى أبوشادى «١٣٠٩- ١٣٧٤ هـ، ١٨٩٢- ١٩٥٥م» الذى اشتهر كشاعر وأديب، وعلم من أعلام الرومانسية الأدبية والحداثة الشعرية والتجديد الأدبى.

ولد بالقاهرة، ودرس الطب، وقام بتدريسه، ثم انصرف بكليته إلى الأدب والشعر، فتألق فى سماء الحياة الأدبية والإبداع الشعرى.. وخلف فى هذا الميدان أعمالا مرموقة، منها: «معشوقات ابن طولون» و«مفخرة رشيد» «والزباء ملكة تدمر» ودواوين: «من السماء» و«الشفق الباكى»

● ولقد غطت هذه الإبداعات الأدبية والشعرية- التى ركز عليها النقاد كل الأضواء- على الجانب الإسلامى فى إبداعات أحمد زكى أبو شادى.. فلم يلتفت الكثيرون إلى أن الرجل كان له ولع بالفكر الإسلامى، ونزعة تجديدية لهذا الفكر، وروحانية صوفية تناول بها العديد من قضايا هذا الفكر الإسلامى..

نعم.. لقد كتب الرجل- غير هذه النصوص التى نقدم بين يديها- دراسات إسلامية رصينة، منها:

١- «مذهبى» الذى تحدث فيه عن توجهه الإسلامى الذى يجمع بين العقل والعلم والتصوف.

٢- و«رسالة محمد»- ﷺ- وهو شرح للروح الإنسانية العالية-

روح الإنسان الكامل- التى تمثلت فى رسالة نبى الإسلام وسيرته.

٣- و«المال فى الإسلام» وهو بحث يبرز فيه تفوق المنهاج الإسلامى فى فلسفة التعامل مع الثروات والأموال، وإنقاذ المستضعفين فى الأرض من الفقر والفاقة، ومن القارونية التى تفترس جماهير الأمم والشعوب.

٤- و«حقوق الإنسان» الذى أبرز فيه تفوق المنهاج الإسلامى فى فلسفة هذه الحقوق وفى تطبيقاتها على المناهج الإنسانية الأخرى. وذلك بالإضافة إلى النصوص التى نقدم بين يديها.. والتى تمثلت فى:

٥- محاضرة «عقيدة الألوهية»- التى ألقاها فى «ندوة الثقافة» بالإسكندرية- مساء الثلاثاء ٣ نوفمبر ١٩٣٦م- والتى نشرت ملحقا بمجلة «أدبى» ١٩٣٦م.. وهى المحاضرة التى نحا فيها منحا منطقيا وصوفيا- جمع بين العقل والقلب والفطرة- فى إثبات الألوهية.

٦- و«لماذا أنا مؤمن؟» الذى رد به على مقال الدكتور إسماعيل أدهم «١٣٢٩- ١٣٥٩هـ ١٩١١- ١٩٤٠م»: «لماذا أنا ملحد؟» الذى كتبه نقدا لمحاضرة «عقيدة الألوهية»- فجاء هذا البحث إضافة لما كتبه أبو شادى فى «عقيدة الألوهية»- والذى نشر، هو الآخر، ملحقا بمجلة «أدبى» ١٩٣٧م.

● هذا هو الطرف الأول من أطراف هذا الحوار- بين الإيمان والإلحاد- .. الدكتور الطبيب أحمد زكى أبو شادى، الذى اشتهر ولمع فى سماء الشعر والأدب، بمصر.. وبالمهجر الأمريكى، والذى صعدت روحه إلى بارئها بواشنطن فى ١٩ شعبان ١٣٧٤هـ أبريل ١٩٥٥م [١].

---

(١) عمر رضا كحالة (معجم المؤلفين) طبعة دمشق ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

وفـى هـذه المحاضرة عن «عقيـدة الألوهية» تحـدث الدكتور أبو شادى عن :

● أن التعليم الطبى يؤدى حتما إلى شيء من الصراع مع الدين، وإلى زعزعة الإيمان الدينى، بسـبب ضعـف الإيمان الفطرى عند الذين يفشلون فى التوفيق بين العلم والدين.

● وكيف أنه قد تصدى لهذه المهمة- مهمة التوفيق بين العلم والدين- بتشجيع من أستاذه الإمام الجليل المرحوم السيد محمد رشـيد رضـا «١٢٨٢- ١٣٥٤هـ-١٨٦٥- ١٩٣٥م» الـذى كان يكاتبه ويكاتب مجلة «المنار» حتى إبان إقامته فى إنجلترا.

ذلـك أن إيمانـه بعقيـدة الألوهية قـد دفعه للتطوع متحمسـا لتفسير هذه العقيدة والإشادة بمكانتها وآثارها سنوات طويلة.

● وكأثر من آثار الإيمان، الذى يؤدى إلى انتماء المؤمن للكون والمطلق، والذى يولد الإحساس بعلاقة الجزء- الإنسان- بالكل- الكون والمطلق- فلقد عشق الفلك، وتردد على المراصد، فوجد فى ذلك عبادة صوفية واستغراقا فى معانى الألوهية.

● كمـا اطلع اطلاعا واسـعا على ما كتبه الفلاسـفة وأسـاتذة الفلسـفة حـول الإيمـان بالألوهيـة، فـزادت قناعته بـأن الإيمان بالله- سـبحانه وتعالى- إنما يتمشـى مع حقائق العلم.. فالطبيعة والدنيا- التى هى موضـوع العلم- إنما تدل على الألوهية.. ذلك أن الأسباب الثانوية إنما تدل على السبب الأول، والنظام الكونى إنمـا يشـهد بوجود العقـل غير المحـدود.. والجمـال، فى هذا العالـم، إنما يـدل على الروح الأعلى الراعى لهـذا الوجود وما به من نظام وحكمة وجمال.

● كما أشـار إلى المناخ الذى ألقى فيـه محاضرته عن «عقيدة الألوهيـة».. مناخ التغريب الذى تتمدد فيه نزعات الفكر المادى الغربـى، الـذى غـرق فـى ثنائيـة التناقـض المزعـوم بيـن العلم

والإيمان، الأمر الذى أدى إلى تراجع الإيمان الدينى، وصعود الفلسفة المادية على أنقاض الدين، حتى إن الإحصاءات التى أجريت فى البلاد الغربية قد أثبتت أن المسيحيين فيها هم في- الحقيقة- بعيدون كل البعد عن المسيحية وكنائسها!

● وتحدث عن مذهبه الرافض لما يقول به بعض المفكرين الغربيين من أن الشعور بالألوهية هو ثمرة للخوف أو الجهل.. ذلك أن هذا الشعور هو- فى الحقيقة- مسألة فطرية سيكلوجية مبعثها إحساس الجزء- الإنسان- بالكل- الكون والمطلق- .. ثم تساءل:

- وهل نحن- فى المعنى الصوفي- إلا أبناء الله؟

● وبالتفسير الإشارى، رأى الدكتور أبو شادى فى آية الكرسي- الآية ٢٥٥ من سورة البقرة- :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

رأى فيها مفتاح التصوف الإسلامى، وباب الألوهية الحقة.. فقال:

«إنها تملؤنى إحساسا بوحدة الوجود، واعتقادًا تاما بأن الإسلام لا يفصل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان».

● إن عقيدة الألوهية، فى ضوء الإسلام- على عكس ما يظنه الفلاسفة الماديون- لا تخالف العلم السليم ولا الإحساس النفسانى النقى، وهى بعيدة كل البعد عن الخوف والخرافة

والجهل، لأنها تقوم على ركنين:

أولهما: الإحساس الصوفى الفطرى.. إحساس الجزء بالكل..

وثانيهما: وحدة الوجود التى تشع عليها آية الكرسي وغيرها من الآيات القرآنية التى ينبع منها التصوف.. كقوله تعالى:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾

(البقرة: ١١٥)

وقوله:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

وقوله:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾

(النور: ٣٥)

لذلك، فلا حاجة لنا، نحن المسلمين، بذلك النقاش البيزنطى بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السابقين، وحصروا تفكيرهم في نواح بعينها.

فالنفس البشرية لا يمكن أن تتخلى عن عقيدة الألوهية.. والأسماء الحسنى وصفات الجلال والكمال والجمال المنسوبة إلى الذات الإلهية هي -في الواقع- رموز للعوامل المختلفة التى أطلقها الله، سبحانه وتعالى، فى هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الأسباب والنتائج، وكثير منها رموز لا يجوز أن نسيء تفسيرها.

وحتى ظاهرة النبوة، التى رفضها الماديون ظنا منهم منافاتها للعقل والمنطق، هى مفارقة للعادة، وليست مفارقة للعقل والمنطق، إذ تحكمها قوانين خاصة أبدعها بديع السموات

والأرض، ومسبب الأسباب.. فهى ليست بعيدة عن الحقائق العلمية والنفسية- كما أوضح ذلك فيلسوف الإسلام الفارابى «٢٦٠- ٣٣٩هـ، ٨٧٤- ٩٥٠م»

كذلك لا تناقض بين الحس الصوفى وبين العلم الفلسفى، فالعلم الفلسفى سند للحس الصوفى، على عكس دعاوى النزعات المادية التى تأخذ بالعلم والفلسفة وحدهما، دون الحس الصوفى.

إن النموذج الإسلامى قد برئ من الثنائيات التى عرفتها الحضارة المادية الغربية.. فالقرآن الكريم- وهو النقل- يتمشى فى جميع أجزائه مع العقل والعلم الصحيح، لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوى الألباب.. والمعرفة الصحيحة تأتى عن طريق البحث العلمي وعن طريق التذوق الصوفى لفلسفة الدين.. لا عن طريق أحدهما دون الآخر.. وهذا المنهاج الإسلامى، الذى يجمع بين العلم وبين التصوف، يرفض الوقوف عند ظواهر النصوص رفضه للباطنية التى صاغها السهروردي- المقتول- «٥٣٩- ٦٣٢هـ ١١٤٥- ١٢٤٣م» فى فلسفة الإشراق.

هكذا تحدث الدكتور الطبيب أحمد زكى أبوشادى عن مذهبه فى الإيمان بعقيدة الألوهية.

●●●

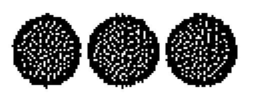
فلما قرأ الدكتور إسماعيل أدهم هذه المحاضرة، رد عليها بمقال: «لماذا أنا ملحد؟».. وهو المقال الذى رفض فيه قيام الكون الطبيعي والبشرى على قانون السببية، وعلاقة الأسباب بالمسببات، واضعا بدلا من ذلك «قانون» الاحتمالات.. ورافضا وجود سبب أولى لما فى الوجود من أسباب.. واضعا بدلا منه «قانون» الصدفة.. فكان رد الدكتور/ أحمد زكى أبوشادى على مقال «لماذا أنا ملحد؟» بدراسة: «لماذا أنا مؤمن؟» التى أثبت

فيهـا افتقار القائلين «بقانـون» الصدفة إلى الدقـة فيما نقلوه عن الفلاسـفة الغربيين.. فالذين قالوا بالصدفة من الغربيين- ومنهم الفيلسـوف «هنـرى بوانكاريـه» «١٨٥٤- ١٩١٢م» قـد أرجـع القـول بالصدفة إلى «الجهل» بالأسـباب، وليس إلى «علم» يقول بالصدفـة! ذلـك «أن الصدفة تخفـى جهلنا بالأسـباب. والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

ولذلـك، فإنـه لا يمكـن أن يفسـر الوجـود وما فيه مـن نظام وحكمة وإبداع بدعوى هى ثمرة للجهل بالأسـباب الحاكمة لهذا الوجـود.. ثم كيف نضفى وصف «القانـون» على الصدفة التى لا يحكمها قانون؟!

كذلـك ذهب الدكتور أحمد زكى أبو شـادى إلـى نقد ما ادعاه الدكتـور إسـماعيل أدهـم مـن إرجاع ما يحـدث فى الوجـود إلى «قانـون» الاحتمال.. فلا الغربيون- الذين ينقل عنهم إسـماعيل أدهـم- قالوا بذلك.. ولا هو قدم تعليلا معقولا لقيام الوجود على الاحتمالات- دون سـببية، ودون مسبب للأسباب.. فكان موقفه شاذا وغريبا عن كل من العلم والدين!

هـذا هـو الطـرف الأول من أطراف هـذا الحـوار الخصب بين الإيمان والإلحاد..



-٢-

أمـا الطرف الثانى فى هذا الحوار، فهـو صاحب مقالة: «لماذا أنـا ملحد؟» والتى اشـتهر بها حتـى غطت على أعمالـه الفكرية والعلمية الأخرى.. إنه:

● الدكتـور إسـماعيل أدهـم «١٣٢٩- ١٣٥٩هـ ١٩١١- ١٩٤٠م»- إسـماعيل بـن أحمد بن إسـماعيل بن إبراهيم باشـا أدهم.. الذى ولد بالإسـكندرية لأب تركى، كان ضابطا بالجيش

التركى، ولأم ألمانية مسيحية بروتستانتية.. وكان جده معلما للغة التركية بجامعة برلين، وجد أبيه مديرا لديوان المدارس المصرية فى عهد محمد على باشا الكبير «١١٨٤- ١٢٦٥هـ ١٧٧٠- ١٨٤٩م».

● ولقد تعلم إسماعيل أدهم بالإسكندرية وبالآستانة.. ولأن والده كان مستغرقا فى جبهات القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، فلقد كان شديد الحرص على تربية ابنه تربية إسلامية، تنقذ عقيدته من مسيحية الأم- التى توفيت وهو فى الثانية من عمره- تاركة له أختين مسيحيتين.. فلقد عهد الوالد إلى من يدفع ابنه دفعا نحو التدين بالإسلام، فكان تكليف الصغير بحفظ القرآن، والصيام، والصلاة- بما فى ذلك صلاة التراويح.. فرأى الطفل من التربية الإسلامية الوجه القاسى، بينما كانت أختاه تصحبانه إلى الكنيسة، حيث رأى فى المسيحية نزهة أسبوعية لا تكلفه مشقة فى العقائد ولا فى العبادات، لأن أختاه لم تكونا مؤمنتين إيمانا مسيحيا حقيقيا.

هكذا نشأ الطفل إسماعيل أدهم، فى ظل «تربية إسلامية متشددة وقاسية» وفى ظل «مسيحية فارغة خفيفة»!

● ولقد تعلم- مع العربية والتركية- الألمانية والروسية وقليلا من الإنجليزية.. واتجه- فى الثقافة- إلى الميادين الفكرية والعلمية البعيدة عن الدين.. بل والمناهضة للدين، فقرأ لداروين «١٨٠٩- ١٨٨٢م» وهكسلى «١٨٢٥- ١٨٩٥م» وهيكل «١٨٣٤- ١٩١٩م» والسرعيل، وبيجهوت، وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ومن ثم ملأت نظرية التطور الداروينية الفراغ الدينى فى عقل الفتى ووجدانه.

● وفى ١٩٢٧م غادر إسماعيل أدهم مصر إلى الآستانة- فى ظل الثورة الأتاتوركية على الإيمان الديني- فدرس هناك الرياضيات،

وانضم إلى «جماعة نشر الإلحاد» التي كونها الطلاب الملحدون في جامعة الآستانة، والتي ضمت ثمانمائة من طلاب المدارس العليا، وأكثر من مائتي طالب من المدارس الثانوية والإعدادية!.. ولقد اتصلت هذه الجمعية بنظيرتها الأمريكية، التي كان يديرها داعية الإلحاد تشارلز سمث، فتحول اسمها إلى «المجمع الشرقي لنشر الإلحاد».. ثم تواصل الفتى مع مجلة «العصور» التي كان يصدرها الدكتور إسماعيل مظهر «١٣٠٨- ١٣٨١هـ ١٨٩١- ١٩٦٢م» والتي كانت تدعو إلى التحرر الفكري والداروينية وشيء من الإلحاد.

● وفي ١٩٣١م غادر إسماعيل أدهم تركيا إلى الاتحاد السوفيتي، في بعثة لدراسة الرياضيات والطبيعيات في جامعة موسكو، ومنها نال الدكتوراه ١٩٣٣م.. ثم واصل دراسته، فحصل على دكتوراه ثانية في الميكانيكا الجديدة- الطبيعيات النظرية.

ولقد عمق المناخ المادي الماركسي الذي عاشه في موسكو النزعة الإلحادية عنده، فاستراح إلى عقيدة الإلحاد، متخلصا من أي إيمان ديني.. وكانت دراسته العلمية والفلسفية، مع أسلوب تربيته، والمناخ الإلحادي الذي أحاط به، أهم العوامل التي وصلت به إلى هذا الموقف، الذي استراحت له نفسه، حتى قال: «أنا ملحد، ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد، ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق، من هذه الناحية، عن المؤمن المتصوف في إيمانه»!

● وهو يعرّف الإلحاد بأنه: «هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته، وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم».. ويرى «أن أصل فكرة الله قد تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي

كنا نخلعها عليها» !

ولقد ذهب- في تعليل وجود العالم- إلى نظرية الصدفة، وأنكر السببية التى تربط بين المسببات والأسباب، مرجعا ما يحدث في العالم- عالم الوجود وعالم البشر- إلى نظرية الاحتمالات.. وقال: «إن العلاقة بين الأسباب والنتائج تخضع لسنن الاحتمال المحضة، التى هى أساس الفكر العلمى الحديث.. وإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال، فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.. ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة فى الاصطدام، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية، فلاشك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذلك «القرآن» مجموعا منضدا مصححا من نفسه. ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية.

إن عالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة» !

هكذا أنكر إسماعيل أدهم قانون السببية.. واضعا بدلا منه «خبط الاحتمالات اللانهائية».. و«الصدفة».. وذهب فأطلق على خبط الاحتمالات وعلى الصدفة وصف «القانون» !

ويبدو أن الرجل لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى هذا الذى ذهب إليه، وحاول إقناع نفسه به.. ولذلك قال: «إن هناك صعوبة فى التعبير الرياضي عن قانون الصدفة.. وهذه الصعوبة مانعة للكثيرين من الإيمان بهذا القانون.. أما أنا شخصيا فلا أجد هذه

الصعوبة إلا شكلية ، والزمن وحده قادر على إزالتها ، ومن هنا لا أجد بدا من الثبات على عقيدتي العلمية والدعوة إلى نظريتى القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله» !

لقد خالف- وحده- كل الفلاسفة والعلماء- بمن فيهم الملحدون الذين آمنو بالسببية ، ورأوها ذاتية فى هذا العالم- وحاول أن يطمئن نفسه ، فأطلق على «خبط الاحتمالات» وعلى «الصدفة» وصف «السنة . . والقانون» ! ثم علق صدق هذا الذى قال على الزمن المستقبل القادر وحده على حل هذه الألغاز وإزالة هذه الصعوبات ! !

●●●

هكذا كانت مسيرة الرجل : تربية دينية قاسية ، نفرته من الإيمان . . ثم حلول الداروينية محل نظرية الخلق الإلهى للعالم . . ثم مناخ إلحادى جعله يحل نظرية الصدفة وخبط الاحتمالات محل النظام الذى يربط بين الأسباب والمسببات فى كل عوالم الوجود ، والذى يعود بالخلق إلى سبب أول لما فى الكون من علاقات .

لقد وقع الرجل- إذا شئنا الدقة- فى متاهة اللا أدرية . . ثم سماها- وهذا عجيب- بالعلم والمنطق العلمي ! !

يشهد على ذلك قوله : «لقد خرجت من كل بحثى بأن الحقيقة اعتبارية محضة ، وأن مبادئ الرياضيات اعتبارية محضة (٢) . . وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان ، وتخليت عن كل المعتقدات ، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى ، ولشدة

---

(٢) فى المعجم الفلسفى الذى وضعه مجمع اللغة العربية: أن الأمر الاعتبارى هو: «اعتبار ما ليس بعلة علة وأنها إحدى حجج السوفسطائيين. التى تتلخص فى استخدام سبب غير السبب الحقيقى فى الاستدلال.

ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالا وأكثر اطمئنانا من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني» !

لقد رفض الإيمان، المؤسس على منطق السببية- مع الفطرة- واستراح إلى الإلحاد، القائم على نظرية الصدفة وخبط الاحتمالات !!.. ولقد علق صدق هذا الذى اعتقده على الزمن، الذى مضى منه قرابة القرن، سقطت فيه نظريات المادية الجدلية والمادية التاريخية.. وأخذ الإيمان الإسلامي- المؤسس على المنطق والفطرة يتمدد في الفراغ الذى خلفه الإلحاد والفلسفة الوضعية فى الفضاء الغربى !

بقى أن نقول: إن الرجل الذى اشتهر بمقالته: «لماذا أنا ملحد؟».. قد شغل وظيفة مدرس للرياضيات بجامعة سان بطرسبرج، وانتخب عضوا- أجنبيا- فى أكاديمية العلوم السوفيتية، وعهدت إليه جامعة فريبورج بالإشراف على طبع كتاب المستشرق أسبرنجر «١٨١٣- ١٨٩٣م» عن «حياة محمد» ﷺ .. كما انتخب وكيلا للمعهد الروسى للدراسات الإسلامية.

وعندما عاد من الاتحاد السوفيتى إلى تركيا قام بتدريس الرياضيات فى معهد أتاتورك بأنقرة، وهناك نشر كتابه: «إسلام تاريخى»- بالتركية

فلما عاد إلى مصر ١٩٣٦م بعد عشر سنوات من مغادرته لها- نشر رسالة- بالعربية- عنوانها: «من مصادر التاريخ الإسلامى»- صادرتها الحكومة المصرية.. ثم نشر كتابا عن «الزهاوى الشاعر».. كما كتب عدة مقالات فى عدد من المجلات تدعو إلى التحرر من الإيمان الدينى.. منها: «علم الأنساب عند العرب» و«نظرية النسبية» و«خليل مطران الشاعر» و«طه حسين: درس



وتحليل» و«عبدالحق حامد»- الشاعر التركى.. كما نشر مقالته: «لماذا أنا ملحد؟» فى مجلة «الإمام»- التى كان يصدرها الأديب الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى «١٣٢٠- ١٤٠٣هـ، ١٩٠٢- ١٩٨٣م»- فى عدد أغسطس ١٩٣٧م.. معلقا وناقدا ورافضا لما جاء فى محاضرة الدكتور أحمد زكى أبوشادى «عقيدة الألوهية»- التى نشرت ملحقة بمجلة «أدبى» ١٩٣٦م.

● ولقد أثارت مقالته: «لماذا أنا ملحد؟» ردود أفعال فكرية.. فكتب الدكتور أحمد زكى أبوشادى دراسته: «لماذا أنا مؤمن؟».. وكتب العلامة محمد فريد وجدى دراسته: «لماذا هو ملحد؟».. ووجد إسماعيل أدهم أن الإيمان الديني- الذى غادر محيطه فى العشرينات- لا يزال راسخا رسوخ الجبال، يمثل هوية الأمة وذاتيتها، والأوكسيجين الذى تستنشقه فينعشها ويحييها.. كما تقاوم به فتنة- الإلحاد التى أصبح لها دولة- الاتحاد السوفيتي- تمثل سدس الكرة الأرضية لأول مرة فى التاريخ!.. فمرض جسمه بالسل، بعد أن مرض عقله بالإلحاد.. وبسبب من اليأس والقنوط- الذى يولده الإلحاد- تعجل الموت، فانتحر غرقا فى بحر الإسكندرية ١٩٤٠م(٣).

●●●

-٣-

أما الطرف الثالث- فى هذا الحوار بين الإيمان والإلحاد- فهو العلامة محمد فريد وجدى «١٢٩٥- ١٣٧٣هـ، ١٨٧٨- ١٩٥٤م»- محمد فريد بن مصطفى وجدى بن على رشاد.

● ولد ونشأ بالإسكندرية.. وأقام زمنا بدمياط، حيث كان

---

(٣) الزركلى «الأعلام» طبعة بيروت.

والـده وكيـلا لمحافظتها- مدير مديريتها- وانتقل مـع أبيه إلى مدينـة السـويس.. ولما سـكن القاهـرة عمل موظفا فـى وظيفة صغيرة بديوان نظارة الأوقاف.

● أتقن اللغة الفرنسـية مـع إتقانه اللغة العربيـة.. وتبحر فى الثقافة الغربية- مع تبحره وإحاطته بالثقافة العربية والإسـلامية- وكان عصاميا فـى تكوينـه الثقافـى والفكـرى، إذ انصرف عن التعليم النظامى وهو فى المرحلة الثانوية.

● وكانت قضيته الأولى طوال حياته الدفاع عن الإسلام، بالعلم والمنطق العقلى، ردًا على الفلسـفة المادية والوضعية التى غزت العالم الإسـلامى فى ركاب الاستعمار.. ولقد وهب حياته خالصة للرباط على ثغور الفكر، مترفعًا عن غشيان المجالس العامة، وقل أن يزور أحدًا أو يجيب دعوة أحد.. وكان يأنس بزواره فى بيته.

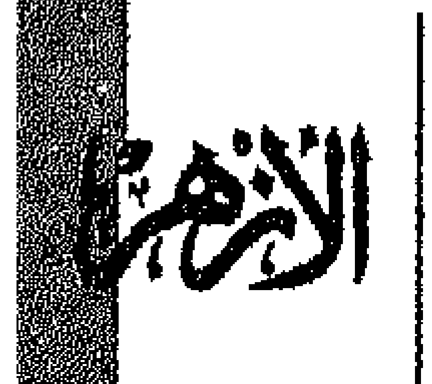
● ولقـد توجه بفكره إلى علماء الغـرب، فألف بلغتهم، وإلى قـراء العربية ليحصن عقولهم ضد الفكر المادى ونزعات الزندقة والإلحـاد، وضـد خداع المنصريـن.. كما توجه بفكـره هذا إلى علماء الإسـلام ليسـاعدهم على التجديد ومغـادرة حياة الجمود والتقليد.

● أصـدر عددًا من المجلات.. منها مجلة «الحياة» إبان إقامته بدميـاط.. وفـى القاهـرة أنشـأ مطبعة أصـدر بواسـطتها جريدة «الدسـتور»- يومية، مناوئة للاسـتعمار الإنجليـزي-.. ثم مجلة «الوجدانيات»- شبه أسبوعية.

● وكانـت باكورة تآليفه ١٣١٣هـ ١٨٩٥م- وهو فى الثامنة عشرة من عمره- رسـالة:

● «الفلسـفة الحقة فى بدائع الأكوان».. ثـم توالـت مؤلفاته.. ومنها:

● «تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية» ١٣١٦هـ



١٨٩٨م- كتبه أولًا بالفرنسية.. ثم ترجمه إلى العربية.. ولقد سماه- فى الطبعة الأولى- «المدنية والإسلام».

● «الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية» ١٣١٨هـ ١٩٠٠م.

● «على أطلال المذهب المادى»- فى أربعة أجزاء- ١٣٣٩هـ ١٩٢١م.

● «صفوة العرفان»- وهو تفسير موجز للقرآن الكريم.

● «كنز العلوم واللغة» ١٣٣٣هـ ١٩١٥م- وهو دائرة معارف لفصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم النقلية والعقلية والطبيعية، ومختصر لتراجم المشاهير.. ولقد رتب مواده ترتيب القاموس.. ثم توسع فيه فتحول إلى «دائرة معارف القرن العشرين».

● «مجموعة الرسائل الفلسفية» ١٣٣٣هـ ١٩١٥م.

● «المرأة المسلمة»- رد به على كتاب «المرأة الجديدة» لقاسم أمين- ١٣١٩هـ ١٩٠١م- ولقد ترجم إلى التركية والفارسية والأردية.

● «الوجديات» ١٣٢٨هـ ١٩١٠م- وهو مقالات فى الدين واللغة والوطن.

● «الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الأجنبية».

● «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري- العشرين الميلادى»- فى عشرة مجلدات- صدرت طبعتها الأولى ما بين ١٣٢٨هـ و١٣٣٦هـ، ١٩١٠م- ١٩١٨م- ولقد أراد أن تكون- فى العربية- كقاموس «لاروس» فى الفرنسية- فكانت أشهر أعماله الفكرية.. ولقد قررتها نظارة المعارف فى مكتبات المدارس.

- «ما وراء المادة» - في جزءين.
- «الإسلام فى عصر العلم» فى مجلدين.
- «الإسلام دين عام خالد».
- «معالم الإسلام».
- «كتاب المعلمين» ١٣٣٦ هـ-١٩١٨م.
- «مهمة الإسلام فى العالم».
- «نقد كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين «١٣٤٤ هـ-١٩٢٦م»

وهو الذى قرظه زعيم الأمة سعد زغلول باشا «١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ، ١٨٥٧ - ١٩٢٧م» فى رسالة بليغة إلى فريد وجدى قال فيها :

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدى وصلنى كتابك الذى وضعته فى نقد كتاب «فى الشعر الجاهلى»، وتفضلت بإرساله إلى، وقرأته فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقنى منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة فى أدب رائع، وتحقيق دقيق فى أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين فى علم واسع، وانتصاف للحقيقة فى احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبًا فياضًا بالإيمان وعقلا مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب، فقررت عينا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم فى دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها والسلام على المهتدين»

سعد زغلول (٤)

(١٦ أكتوبر ١٩٣٦م)

---

(٤) محمد إبراهيم الجزيرى «سعد زغلول ذكريات تاريخية» ص٣٧ طبعة كتاب اليوم القاهرة.



● «ليس من هنا نبدأ»- وهو رد على كتاب الأستاذ خالد محمد خالد «١٣٣٩- ١٤١٦هـ، الموافق ١٩٢٠- ١٩٩٦م» «من هنا نبدأ»

● كما أصدر فريد وجدى مجلة لمباحث الحياة الروحية والتنويم المغناطيسى، جعل أبحاثها حجة علمية على المنكرين لعالم الغيب من الماديين.. وكان يحسن الاستفادة من الاكتشافات العلمية الأوروبية الحديثة فيوظفها فى نصرة التفسير الإيمانى للظواهر العلمية.

● كما كتب فصولا فى السيرة المحمدية- جمعها المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى «١٣٤٢- ١٤٣٢هـ، ١٩٢٣- ٢٠١١م»، وأصدرها فى كتاب.

● ولقد تولى فريد وجدى رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» ثمانية عشر عامًا، فارتفع مستواها وخصها بنفائس أفكاره ثم اعتزل رئاسة تحريرها- مخلدًا إلى الراحة- قبل وفاته بنحو عامين.

● وغير المجلات التى أصدرها، والتى رأس تحريرها، أسهم بالمقالات والدراسات فى «المؤيد» و«الأهرام» و«الرسالة» و«الهلال» و«المعرفة» و«المقتطف» و«الحديث»- وغيرها من المجلات الفكرية المتخصصة.

● وعندما انتقل إلى رحاب ربه نعاه العلماء والكبراء والزعماء.. ووصفه الأستاذ عباس محمود العقاد «١٣٠٦- ١٣٨٣هـ، ١٨٨٩- ١٩٦٤م» بأنه «فريد عصره، وما وجد اسم فى هذا العصر يوافق صفته إلا اسم «فريد».. وكان البعض يقرنه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. رحمهم الله جميعا.

●●●

● ولقد شارك العلامة فريد وجدى فى هذا الحوار- بين الإيمان والإلحاد- بدراسة فلسفية متألقة، نشرها بمجلة «الأزهر»- المجلد الثامن- عدد رجب ١٣٥٦هـ سبتمبر ١٩٣٧م. ص٤٥٧- ٤٧٥- أى فى الشهر التالى لظهور مقال الدكتور إسماعيل أدهم «لماذا أنا ملحد؟».. وذلك تحت عنوان: «لماذا هو ملحد؟». فجاءت بيانا شافيا فى فلسفة الإيمان، وتفنيد «حجج» الماديين والملحدين.. كما تحلت بروح الاستنارة فى الحوار مع «الآخر».. التى هى قسمة أصيلة من قسمات الإسلام وتراث المسلمين.

«فنحن لا نضيق ذرعا بما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى.. بل إن هذا التسامح الذى يدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر، هو فى الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله. فقد كان يجتمع المتباحثون فى مجلس واحد بين سنى ومعتزلى ومشبه ودهرى إلخ.. فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس، وعظمة فى القلوب، وكرامة فى التاريخ..»

● «ولقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفى الصانع.. وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات، والحكم بوجود شىء أو نفيه مما وراءها إلا إذا كان له فى تلك المحسوسات أثر يستهدى به».

● «إن القول بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته، لا يمكن أن يعدو كونه رأيا.. والرأى- فى عرف العلم- لا يولد إيمانا راسخا لا يقبل المناقشة.

إن العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة إلا إذا كانت كلها متنزلة من علة رئيسية ، تصدر عن تدبير سابق للحوادث » .

● ولقد نقل الدكتور- صاحب رسالة : « لماذا أنا ملحد ؟ »- عن الفيلسوف الألماني « كانت » « ١٧٢٤ - ١٨٠٤م » قوله : « إنه لا دليل عقلي أو علمي على وجود الله ، وإنه ليس هناك من دليل عقلي أو علمي على عدم وجود الله » .

ثم قال الدكتور عقب ذلك : « وهذا القول الصادر من أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة . وقول « عمانويل كانت » لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتيني « ٩٩- ٥٥ق .م » منذ ألفي سنة » .

وأنا أقول : لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذي يصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة ، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمي والفلسفي . لقد جاء عنه في قاموس « لاروس » ما يأتي :

« شرع الفيلسوف كانت في إصلاح مجموع المعارف الإنسانية ، فبدأ عمله على أسلوب التشكك ، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسطة العقل العملي ، والناموس الأدبي ، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح »

● كذلك ، ادعى الكاتب « أن العقيدة بالله لم تصبح من مستلزمات الجماعات إلا منذ ألفي سنة ؟ ! مع أن الأحجار المنقوشة في الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون ، وكان للدين السلطان المطلق عليها حتى

كان الحكم فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والرهابين.

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية، وأعظمها سلطانا على النفس البشرية، ويزيدها الشعور الوجداني الذى لا سبيل إلى عدم الاعتداد به.. ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة: ماذا أنا، وأى شيء أوجدني في هذا العالم؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلي والوجداني عقب هذا السؤال كما يأتي: لابد أن يكون قد أوجدني موجد قادر، وهو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضا..»

● «وما أورده الكاتب من أن الخبط- خبط الاحتمالات - هو العامل الرئيسي في قيام العالم، يرد عليه أن جميع ملاحدة العالم قديما وحديثا قد بنوا إلحادهم لاعلى أن العامل الرئيسي هو الخبط، لأنهم لم يروه، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصدر عنه إلا ماهو آلى منتظم كل الانتظام..».

● «ثم، أليس انفراد الكاتب بهذا القول الذى أورده- وهو يعترف بذلك- يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه، بل والقذف به إلى عالم المهملات؟..

وهل تصح تسمية الخبط بالقانون؟! لقد غفل الكاتب عن أن في قوله: «قوانين الاحتمال» تناقضا لا يسيغه عقل عاقل في الأرض، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق في العالم تنفى وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه.. إذ كيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس، ومن أى ضابط كان؟!

إن الذى حفز كاتب رسالة: «لماذا أنا ملحد؟» لأن يدفع بنفسه إلى هذا المهمة من الخيال المحض، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة



مـن إيرادات ، فقـد قيل لهم : إن ما تقررونـه من وجود تلك النواميس الرياضيـة المحكمة ملازمة للهيولى (٥) الأولية ، هـو مظهـر الحكمـة الإلهيـة ، وإلا كيف يعقـل وجود قوى منتظمـة ، تؤدى إلى كائنات غاية فى الإبداع ، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها ؟ !» .

● «أما المثـل الذى ضربه الكاتب بوجـوه زهر الطاولة ، والـذى يقـرر فيه أن الديـن لابد من مجيئه مرة فى كل سـتة وثلاثين مرة للزهر ففيه غفلة عن أن وجوه الزهر قائمة على شـكل هندسـى ، وأعدادها معينـه مكتوبة ، فهـى بجملتها موجودة فى عالم آلى يسوده النظام فى كل ذرة من ذراته ، فلا يدع أن تسـرى عليـه قوانين الاحتمال . ولكـن عالـم الخبط الذى لا أثر للعدد فيه ، ولا صورة متعينة لشـىء من أشـيائه ، ولا وجـود للقوانين فيه ، كيف يطبق عليه عمل رياضى قائم على أصول مقررة فى عالم تسـوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخبط ؟ !» .

● «ثم ، كيف يسوغ لباحث أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية عـن كل قانـون ، المجـردة مـن كل ضابـط- كمـا يفترضها الكاتب- بآلة ميكانيكيـة كالمطبعة ، قائمة على أدق قوانيـن الميكانيكا والرياضـة ، ولها قطع منقوش على رءوسـها حروف تتألف منهـا كلمات ، وهى مفصلة تفصيلا هندسـيا ، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض فتؤلف منها صحف ، وللمطبعة أسـطوانات مكسـوة بالغراء تستمد من محبـرة بجوارها حبرا تنقله إلـى الحروف ، بحركات مدبرة

---

(٥) الهيـولى ـ Hyle ـ كلمة يونانية ترجـع إلى أرسطو يراد بها المادة الأولى وهو كل ما يقبل الصورة.

تدبيرا محكما . وهذه المطبعة الميتة لا تغني شيئا إذا لم يكن لها عمال يحركونها ، ويديرون دوراتها ، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل ؟ !

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى ، بل هو غير جائز أصلا ، ومجيئه من باحث ينتمي للرياضيين يزيد في غرابته ، ويجعله أطروفة الأعاجيب في عصر المباحث الدقيقة ، والمقررات المحررة . .

وإن اليوم الذى يقرأ فيه الرجل كتابا فيتبادر إلى ذهنه أن يكون قد صدر عن غير عقل ، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال ، وأن يكون قد خرج مرتبا مجموعا مصححا من المطبعة ذات المليون حرف ، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الإنساني قد انحل انحلالا لا يرجى فيه التئام ، ووصل من عالم الخبط إلى مكان سحيق » .

● « وأقسم ، لولا أني أنقل عبارات الكاتب- كاتب رسالة : « لماذا أنا ملحد ؟ »- لخشيت أن يظن ظان » أني أتقول عليه .

فهل يحتاج مثل هذا الخبط إلى رد ؟ !

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف ، لأن رسالته تحمل في ثناياها معاول هدمها ، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتي بأشد فعل منها ، ولكنا خشينا أن يتوهم من لا علم له أن هذا الكلام فيه أثارة من علم » .

●●●

هكذا تناول العلامة محمد فريد وجدى كشف عوار أول رسالة تدعو إلى الإلحاد في بلادنا- في العصر الحديث- فدفن دعاواها في عالم المهملات . . قبل سنوات قليلة من انتحار كاتبها- يأسا وقنوطا- في بحر الإسكندرية !

ولقد ضرب لنا العلامة- فريد وجدى في هذا الرد

المثل والنماذج فى الصبر على الحوار الموضوعى، حتى مع تهافت الدعاوى وتدنى الشبهات، وذلك انطلاقا من المنهاج الإسلامى الذى لم يترك قرآنه الكريم شبهة من شبهات الدهريين والمشركين وأهل الكتاب إلا وتناولها بالرد والتفنيد.. والذى ضرب المثل الأعلى فى دعوة الآخرين إلى الحوار عندما قال لهم:

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(سبأ: ٢٤)

.. وعندما جعل الحكم فى الحوار إلى حقائق العلم وبراهين العقول:

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(البقرة: ١١١)

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾

(الأنعام: ١٤٨)

﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(الأحقاف: ٤)

إنها صفحة من صفحات الحوار- حوار الإيمان والإلحاد- عرفتها حياتنا الفكرية فى ثلاثينيات القرن العشرين- نعيد نشر وثائقها- محققة- ونقدم بين يديها، مسلطين الأضواء على أطرافها، وعلى قضاياها.. لمواجهة تسلل فتنة الإلحاد إلى بلادنا عبر «الشبكة العنكبوتية» التى تستدرج شبابا لم تقو مداركهم فى المنطق الإيمانى وفلسفة الإلهيات وفطرة الانتماء إلى خالق هذا الوجود.

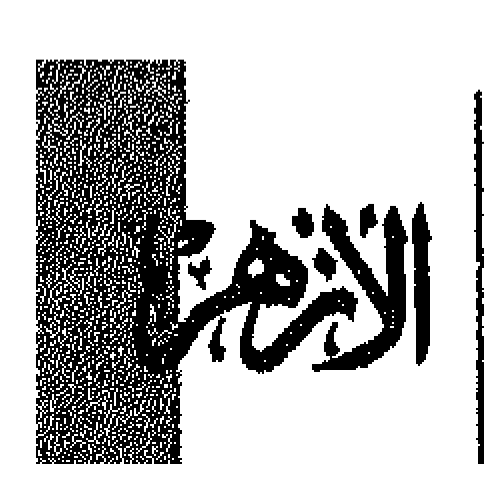
إن الغرب، الذى تجرع كأس المادية والإلحاد والعلمانية، حتى صار فراغا دينيا يتمدد فيه الإسلام، يسعي- فى خضم حربه على الإسلام- إلى أن نتجرع ذات الكأس المسموم الذى سبق وتجرعه.. ومن هنا تأتى أهمية إعادة نشر هذه الوثائق تحصينا للعقل المؤمن، وإزالة لما يثار فى هذا الميدان من شبهات.

سائلين المولى- عز وجل- أن ينفع بهذا العمل، وأن يتقبله خالصا لوجهه الكريم.. إنه- سبحانه- خير مسئول وأكرم مجيب.

د. محمد عمارة

٢٧ ذو القعدة ١٤٣٤هـ

٣ أكتوبر ٢٠١٣م



«١»

عقيدة الألوهة

د. أحمد زكى أبو شادى

«أجل اللــذات وأعلاها معرفة الله والنظر إلــى وجهه، ولا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة»

الغزالي

التصوف الإلهي

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾

(آل عمران: ١٩١)

«احذروا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور من الله»
«تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لم تقدروا قدره»

محمد [[ﷺ]].

«أنا الحق» ـ الحلاج:

أحبك حبين: حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

«رابعة العدوية»

فلم تهونى ما لم تكن فى فانيا
ولم تفن ما لم ترتسم فيك صورتي

«ابن الفارض»

لقد كنت فيما مر أنكر صاحبي
إذا لم يكن دينى إلى دينه دان



وقـــد صـــار قـلـبـي قـابــلا كــل صـــورة
فــمــرعــى لــغــزلان وديـــر لــرهــبــان
وبـــيـــت لـــنـــيـــران ومـــعـــبـــد طـــائـــف
وألـــواح تـــوراة ومـــصـــحـــف قـــرآن
أديـــن بـــديـــن الـــحـــب أنـــى تـــوجـــهـــت
ركـــائـــبـــه ، فـــالـــحـــب ديـــنـــى وإيـــمـــانـــي !

«محيى الدين بن العربى»

كل ذرة فى الوجود تظهر صفة من صفات الله ، لأن هذه الصفات كانـت قد تجلت ثم حلت في هذه الذرات بمقادير مختلفة ، وهى كمرآة عنها تنعكس صفات الله ، وأما الإنسان فهو الذى تظهر فيه تلك الصفات جميعها .

«جلال الدين الرومى»

عقيدة الألوهة

(محاضـرة فلسـفية تصـوفيـة ألقيـت فـى «نـدوة الثقافـة» بالإسكندرية مساء الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦)

سادتي الأفاضل

أشـكر لكم تشـريفى بالاسـتماع إلى هذا الحديث الذى أوثر أن يكـون فـى صورة عرض نقـدى وإن كنت أفضل عـادة الطريقة الاندماجيـة فى بيان المذاهب الفكرية والفلسـفية لأنها أوقع فى النفـس ، غير أنى وقـد رأيت هـذه الطريقة غير منصفـة لمذهبى وتفكيـرى نظرًا لعدم اعتيادها فى مصر ، ـ وإن كان مذهبى الدينى العلمـى معروفًا ـ لـم أجد بدًا من الركون إلـى الطريقة النقدية فى هذا الحديث حتى يسـهل تبين مالي وما لغيرى ، وإن كنت أخشى أنى لا أسـتطيع خدمة موضوع حديثى فى ذاته الخدمة الوافية التى أرمى إليها .

إن التعليم الطبى يا حضرات السادة يؤدى حتمًا إلى شىء من الصراع مع الدين. وقد لحظت منذ نشأتى كثيرين من الأطباء تتزعزع عقائدهم الدينية ثم يتزعزع نهائيًا إيمانهم الإلهى. ومنهم من يدعى التوفيق بين العلم والدين، ولكن اختبار دعواهم يظهر عجزهم عن هذا التوفيق، وما سبب ذلك إلا ضعف إيمانهم الفطرى وسطحية نظراتهم وفقدان الشجاعة الكافية لإيجاد هذا التوفيق المنشود، مادام الدين ظاهرة اجتماعية كائنة فعلاً وواجبة التقدير.

وقد كان شأنى شأن الجندى الجرئ الذى يجد الصفوف قد افتقدت الرائد فيتطوع مندفعًا للقيام بهذه المهمة التى ربما لم يكن كفؤًا لها، ولكن غيرته الفطرية تزجيه وشجاعته تسنده، وكنت أجد تشجيعًا غير قليل من أستاذى المرحوم السيد محمد رشيد رضا الذى كنت أكاتبه وأكاتب مجلته (المنار) حتى إبان إقامتى فى إنجلترا، وكان هذا الإمام الجليل يشجعنى دائمًا وإن خالف آرائى مرات، ولكنه كان يعنى بجوهر سعيى للتوفيق الصحيح بين العلم والدين فى شجاعة لا تنافى الرشد والاتزان.

وسأجعل حديثى الليلة متناولاً مسألة المسائل الدينية والصوفية ألا وهى: «عقيدة الألوهة»، فأقول إنه لولا إيمانى بها لما تحمست متطوعًا هذه السنين الطويلة للإشادة بها وتفسيرها قدر طاقتى.

وتأذنون لى حضراتكم فى ذكر هذه الأبيات المعنونة «العطف الإلهى» من ديوان «الشفق الباكى» فهى من اعترافاتى الوجدانية الصريحة:

وأحس أنى فى اندماج دائم
بالكون، والكون العظيم حياتي
أتأمل الساعات فى أجرامه
وكأننى متأمل مرآتي



وأنـــال عـــطــفًـــا مـــن جـــمـــيـــل حـــنـــانـــه
يـــســـرى إلـــى روحـــى بـــغـــيـــر فـــوات
حـــس خـــفـــى لـــســـت أدرك كـــنـــهـــه
وكـــأنـــمـــا هـــو مـــعـــجـــز الآيـــات
بـــلـــغ الـــضـــمـــيـــر، وكـــان خـــيـــر مـــؤذن
بـــالله فـــى مـــلـــكـــوتـــه لـــحـــيـــاتـــي

وهذا الإحساس هو من دوافع شغفى بعلم الفلك وترددى على المراصد، لأنى أجد فى ذلك عبادة صوفية واستغراقًا فى معانى الألوهة. ولولا هذا الإحساس لما تأملت وفسرت، فالشعور الدينى ليس عقليًا فحسب بل لابد له من استعداد وجدانى، وهذا التأمل الصوفى هو ما نعته الغزالى بالنظر إلى وجه الله.

إن فلسفة عقيدة الألوهة فى نظرى مردها إلى نتيجة إحساس الجزء بالكل، وسامحونى على لغتى الصوفية فلن أجد غيرها مسعفًا فى هذا المقام.

وإذا توسعنا فى هذه النظرة فيخيل إلىَّ أن تمجيد الأبطال متفرّع عنها أو هو صورة منها، لأن البطولة شمول وعظمة بحيث إن البطل فى نظر مقدّريه ـ إن لم أقل عابديه ـ هو رمز للقدرة الغلا بة الفائقة، وبعبارة أخرى إنه رمز الشمول. ولذلك نجد تمجيد الأبطال الوطنيين والدينيين وغيرهم يكاد يبلغ عن غير وعى مرتبة التأليه، خصوصًا إذا كان البطل ميتًا، حتى ربط بعض الباحثين المتعمقين مثل جرانت ألن Grant Allen والأستاذ هالدين[٦] Prof. J. B. S. Haldane نشوء الآلهة عند الوثنيين وظهور القديسين عند غيرهم بعبادة الموتى، ومن العجيب أن

---

(٦) هالدين ـ جون سكوت (١٨٦٠ ـ ١٩٣٦م) فيزيولوجى وفيلسوف بريطانى. اسكتلندى الأصل. حاول توضيع الأساس الفلسفى لعلم الأحياء.

النفس البشرية شديدة الميل إلى تقديس الموتى والانحراف بذلك انحرافًا عظيمًا عن جادة التوحيد والمنطق السليم.

وحتى في ضوء الدين الإسلامي الذى يعد المثل الأعلى فى صراحة التوحيد نزع الدهماء من المسلمين بالرغم من أصوله الصريحة إلى تمجيد الأولياء تمجيدًا يخالف روح الإسلام، مما ألجأ المصلحين أمثال محمد عبده(٧) ورشيد رضا(٨) والمراغي(٩) وسواهم إلى محاربة هذه البدع التى تكاد تؤدى إلى الإشراك بالله.

من هذا أنتقلُ إلى التنبيه إلى أن عقيدة الألوهة من الناحية الفلسفية العلمية هى ظاهرة سيكولوجية، هى إحساس الجزء بالكل، وهى تندرج تحت أسماء مختلفة من شعور الإنسان نحو وطنه ونحو زعيمه ونحو الإنسانية مثلاً إلى شعوره نحو الكون بأسره ونحو الألوهة الشاملة والمطلق.

وإذن فعقيدة الألوهة عند معتنقيها ليست وهمًا حتى ولو كان تفسيرهما عند بعضهم وهمًا، فالإحساس بالألوهة قد يكون واحدًا (وإن تدرج) عند أصحابِ الديانات المختلفة من متمدينين وهمجيين لأنها ظاهرة سيكولوجية متماثلة المنشأ

---

(٧) الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) إمام مدرسة الإحياء والتجديد فى العصر الحديث. وأبرز من تكونت من حول فكره ومنهاجه مدرسة فكرية امتدت عبر العالم الإسلامى، ولاتزال سلسلتها الذهبية مستمرة حتى الآن.

(٨) الإمام الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ - ١٩٣٥م) رأس تلامذة الإمام محمد عبده. وصاحب (المنار) الذى حمل فكر هذه المدرسة إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامى على امتداد أربعين عاما.

(٩) الإمام محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٨١ - ١٩٤٥م) أحد أنجب تلاميذ الإمام محمد عبده، الذى حقق بعض أحلامه فى إصلاح الأزهر، وتولى مشيخته، وامتدت إصلاحاته إلى ميادين التشريع وعالم الأفكار.



ولكن تفسيرها يختلف بينهم جد الاختلاف ولو كانوا جميعًا مخلصين فى إيمانهم.

يقول الأستاذ برنجل باتيسون Prof. Pringle–Pattison فى كتابه (فكرة الله فى ضوء الفلسفة الحديثة)

: The Idea of God in the Light of Racent Philosophy

إن إحساسنا بهذه الفكرة دليل على وجود الله، وهو يعتمد فى تدليله على ظهور الغرض فى النشوء. وفى رأيى العاجز أن هذا التدليل ليس قويًا وإن جاء من أستاذ الفلسفة فى جامعة أدنبره، وكان الأولى به أن يقول إن الإحساس بالألوهة عند أغلبية الناس دليل على فطرية هذا الإحساس وإنه على تكيف هذا الإحساس تتكيف معانى الألوهة التى تختلف جد الاختلاف حسب ثقافة الناس وطبائعهم ومؤهلاتهم وبيئاتهم.

وهذا الأستاذ سورلي(١٠) Prof. W.R. Sorley أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة كيمبردج يرى أن يقرن فكرة الألوهة بالمثالية الخيرية للوجود (راجع كتابه: Moral Values and the Idea of God القيم الخلقية وفكرة الله)

كما أن الأستاذ أ.ن. ألكسندر Prof. A.N. Alexander يرى أن الألوهة هى مثالية سائرة إلى الكمال!

ومثل هذه النظرات الفكرية لمعانى الألوهة لا تتمشى مع معظم الديانات السائدة التى تنزه الله سبحانه وتعالى عن إيمان الأستاذ ألكسندر على الأقل، ولكننا مع هذا ليس لنا أن ننكر أن إيمانه فى حد ذاته قد لا يقل فى حرارته عن إيمان مخالفيه.

إن ما يعنينى من هذا الحديث هو أولاً التلخيص لأحدث

---

(١٠) سورلى ـ وليم ريتشى (١٨٥٥ ـ ١٩٣٥م) فيلسوف إنجليزى مثالى. من مؤلفاته: (حول أخلاق المذهب الطبيعي) و(القيم الأخلاقية وفكرة الله).

الآراء الفلسفية اللاهوتية ثم التعليق عليها بآرائى الخاصة التى تؤيد أن الإيمان بالله يتمشى مع العلم، على اعتبار أنه ليس سليل الوهم أو الجهل أو الفلسفة الخاطئة.

لهذا لن أذهب بعيدًا إلى فلسفة أرسطو(١١) وما بنى عليها من التدليل على وجود الخالق فى عالم الكثلكة خاصة، فلن يقبل العلم ولا الفلسفة الحديثة شيئًا من ذلك. وحتى فى القرن السادس عشر لم تعدم إنجلترا جمعية للعقليين Rationalist society بين أعضائها كرستوفر مارلو(١٢) وولتر رالي(١٣)، وقد رفضت الترويج لتلك الآراء السطحية وإن اتسمت بسمة الفلسفة، وكان لدراسات جون لوك(١٤) John Locke فى سنة ١٦٧٢ للذهن الإنسانى ما قضى على الآراء القديمة اللاهوتية سواء استمدت فلسفتها من أرسطو أو أفلاطون(١٥)، وقد انتهت أبحاث لوك إلى أنه لا توجد فكرة فى الذهن الإنسانى إلا وكانت مكيفة من الرسائل التى تدلى بها المشاعر الإنسانية.

---

(١١) أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) أشهر فلاسفة اليونان. ورأس المذهب المشائى. وواضع المنطق الأرسطى. لقبه المشاؤون العرب «بالمعلم الأول».

(١٢) كريستوفر مارلو (١٥٦٤ ـ ١٥٩٧م) كاتب مسرحى، وشاعر إنجليزى سمى عميد الشعراء المسرحى فى الأدب الإنجليزي، ويعد أكبر المؤلفين المسرحيين بعد شكسبير. تزعم حركة فكرية، واتهم بالكفر والإلحاد.

(١٣) وولتر رالى (١٨٤٢ ـ ١٩١٩م) عالم فيزيقى إنجليزى. فاز بجائزة نوبل سنة ١٩٠٤م.

(١٤) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) فيلسوف إنجليزى. عرف بآرائه المتحررة. نبذ الفطرة، وجعل الاختيار والتجربة المصدر الوحيد للمعرفة. ومن أعماله: (محاولة فى الفهم البشري).

(١٥) أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م) تلميذ سقراط. ومعلم أرسطو. وأحد مشاهير فلاسفة اليونان. وصاحب نظرية المثل.



وجاء هيوم[١٦] Hume فعزز اللاأدريين ثم جون ستيورات مل[١٧] J. S. Mill فلم يحكم بالمعرفة إلا للمشاعر وحدها ثم سبنسر[١٨] Spencer فصرح بأن القوة الأساسية للعالم غير معروفة ولا يمكن معرفتها.

وقد أتحفت (لجنة التأليف والترجمة والنشر) قراء العربية بترجمة كتابين نفيسين أحدهما (عرض تاريخى للفلسفة والعلم) تأليف أ. وولف[١٩] أستاذ المنطق بجامعة لندن، والآخر (فلسفة المحدثين والمعاصرين) للمؤلف نفسه، ففى وسع حضراتكم تصفحهما وتصفح أمثالهما للوقوف على تفصيل ما أجمله فى هذا المقام.

ومن الضرورى الإشارة إلى ظهور طائفة من الفلاسفة المؤمنين (theistic philosophers) بين الإنجليز، وهم تلامذة الفلاسفة الألمان أمثال كانت[٢٠] وفخت[٢١] وشلنج[٢٢]

---

(١٦) هيوم ـ ديفيد (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) فيلسوف ومؤرخ إنجليزى. ومنشىء الفلسفة الظاهرية. وله: (محاولات فى الإدراك البشري).

(١٧) جون ستيورات مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣م) فيلسوف وعالم اقتصاد إنجليزى. له: (مذهب المنطق) و(النفعية) و(أوجست كونت والوضعية).

(١٨) سبنسر ـ هربرت (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م) فيلسوف وعالم اجتماع إنجليزى. صاحب مذهب التطور الطبيعى ـ أى النشوء والارتقاء.

(١٩) وولف ـ فرانك ألفرد (١٨٧١ ـ ١٩٤٦م) فيزيقى أمريكى، ومهندس كهربائى.

(٢٠) كانت ـ عمانويل (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م) فيلسوف ألمانى. وضع العقل فى صلب الوجود ومحوره. له: (نقد العقل المحض) و(نقد العقل العملي) و(نقد الحكم) و(أسس ما ورائية الأخلاق).

(٢١) فخت ـ يوهان جوتليب (١٧٦٢ ـ ١٨١٤م) فيلسوف ألمانى. طبق أفكار كانت على فلسفة الدين. وله: (نقد كل تنزيل) و(مذهب العلمّ) و(دعائم القانون الطبيعى على ضوء مبادىء مذهب العلم).

(٢٢) شلنج فريدريش فلهلم جون فون (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤م) فيلسوف ألمانى. اتجهت=

وهيجل[٢٣] وشوبنهاور[٢٤] وهارتمان[٢٥] ولتز[٢٦]، ولكن آراءهم لم تصمد أمام التقدم الفلسفي العالمي وإن بقيت الآن بعض آراء لكانت وهيجل ولوتز في صورة منوعة. وأهم هؤلاء الأعلام بلا جدال هو كانت، وقد كان - على حد تعبير الأستاذ وولف - شديد الاحترام للنتائج التي وصل إليها العلم الطبيعي، بحيث لم يستطع رفض كل ما تذهب إليه تلك النتائج على الوجه الذى يدعو إليه مذهب هيوم التشككي الذى كان يقول إنه كلما تعمق فيما يسميه نفسه تخبط وتعثر في بعض الإحساسات ولم يستطع أن يقبض على نفسه أبدًا، وكان يعتبر كل ما يبدو حقيقيًا مجموعًا متعددًا من التأثرات والآراء المتقطعة التي يكسبها تداعي المعاني مظهر الحوادث المتسلسلة، ويخيل لنا أن مادتها ثابتة لخطئنا في الظن بأن التأثرات المماثلة لتأثرات سابقة هي بعينها، وكل ما يوثق به هو تيار التجارب المتغيرة حتى الرياضيات نفسها ليست يقينية، وأقصى ما يمكن افتراضه لشيء هو الاحتمال.

كان الفلاسفة المؤمنون في العصور السابقة يعتزون في

=أبحاثه نحو الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية. وله: (أفكار الفلسفة فى الطبيعية) و(فى نفس العالم).

(٢٣) هيجل - جورج فلهلم فريدريش (١٧٧٠ - ١٨٣١م) فيلسوف ألماني شهير. له (موسوعة العلوم الفلسفية) و(مبادىء فلسفة القانون) و(الدروس فى فلسفة التاريخ).

(٢٤) شوبنهاور - آرثر (١٧٨٨ - ١٨٦٠م) فيلسوف ألماني. له: (العالم كإرادة وتصور) و(عن الإرادة فى الطبيعة) و(المشكلتان الأساسيتان فى الأخلاق).

(٢٥) هارتمان - نيقولاى (١٨٨٢ - ١٩٥٠م) فيلسوف ألماني. له: (مبادىء ميتافيزيقا المعرفة) و(مسألة الوجود الروحي) و(الأخلاق) و(فلسفة المثالية الألمانية).

(٢٦) لوتزه - رودلف هرمان (١٨١٧ - ١٨٨١م) فيلسوف وفسيولوجى ألماني. حاول التوفيق بين نتائج العلوم الوضعية والحتمية وبين الميتافيزيقا. له: (الميتافيزيقا) و(الكون الأصغر) و(مذهب الفلسفة).



التدليل على الألوهة بالطبيعة نفسها وبمظاهر الدنيا فى ذاتها، فعندهم أن الأسباب الثانوية تدل على السبب الأول، وأن النظام الكونى يدل على العقل الغير المحدود، وأن الجمال فى العالم يشير إلى الروح الأعلى. ولكن «كانت» قضى على هذا الطراز من المنطق وأحل فى موضعه طرازًا من التعليل العلمى مقسمًا معارفنا جميعها إلى موضوعية وذاتية فى عناصرها.

وينوه الأستاذ وولف بجدة الطريقة التى اتبعها «كانت» دفاعًا عن العلم، وهى طريقة «التجريد» التى كانت تطورًا بينًا للمذاهب القديمة عن «الأفكار العامة» و«الحقائق الخالدة» و«الآراء المستكنة»، فقد كان كانت يرى أن موضوعات العلم نتيجة لعاملين: الأشياء المحسوسة وهى مستقلة عن العقل، وبعض صور وارتباطات يقدمها العقل. وهذه الصور الآتية عن الإلهام (كالزمان والمكان) والعلاقات والمقولات الفكرية (كالجوهر(٢٧) وعوارضه، والعلة(٢٨) والأثر(٢٩).. إلخ) هى أولية سابقة، من حيث إنها لا تكتسب بالتجربة إذ التجربة نفسها تستحيل بغيرها. ومن جهة أخرى نجد مادة الحس لاحقة أى إنها تجىء فقط عن طريق التجربة وإن تكن لا تأتى على ما هى عليه بالفعل بل متغيرة بالصور والمقولات

---

(٢٧) الجوهر: هو ما قام بذاته، فهو متقوم بذاته ومتعين بماهيته. ويقابله العرض. والأعراض والكيفيات تقوم بالجواهر.

(٢٨) العلة: ما يؤثر فى غيره، ويقابلها المعلول، ويعبر عنها بالسبب. وهى أنواع: علة غائية، وهى ما يوجد الشىء لأجله. وعلة فاعلة، وهى العامل المباشر فى إحداث أثر أو معلول ما. وعلة متعدية، وهى التى لا يقف أثرها عند مجرد إيجاد معلولها، بل قد يمتد إلى أشياء أخرى.

(٢٩) الأثر: له ثلاثة معان. الأول بمعنى النتيجة، وهو الحاصل من الشىء. والثانى بمعنى العلامة. والثالث بمعنى الجزء.

السابقة. ولا تصل المعرفة البشرية إلى حقيقة الأشياء نفسها بل إلى مظاهرها، واستخدام الصور والمقولات الأولية فى كل ما يقع فى دائرة التجارب البشرية حق مبرر بل هو فى الواقع أمر لا مفر منه، ولكنها يجب ألا تطبق على ما يتجاوز تلك التجارب، فالله والحياة الآخرة مثلًا أبعد من متناول التجارب الإنسانية، وإذن فلا يمكن أن يكونا موضعًا للمناقشة، فهما لا يمكن إثباتهما ولا نفيهما، ولا يمكن الإيمان بهما على أنهما من الاعتقادات التى تقوم على أسس نظرية بل على أسس عملية. وعلى هذه الاعتبارات العملية بنى كانت الاعتقاد بوجود الله وحرية الاختيار والخلود. فهذه الاعتقادات مسلمات تحتمها أصول السلوك العملى المطلق، كما أن الوجود الحقيقى لعالم الأشياء على صورة ما من المسلمات التى تحتمها النتائج النظرية للعلم. (عرض تاريخى للفلسفة والعلم - ص٩٨ و٩٩).

ولكن هذا التدليل العملى الذى قدمه كانت لم يؤثر إلا على قليلين لأن أساسه العلمى ضعيف، بخلاف نقده للتعقل الخالص Pure reason فقد كان له أثر بليغ على الأفكار فى القرن التاسع عشر، وهكذا اضمحلت آراؤه كما اضمحلت آراء سابقيه ممن لم تصمد تعاليمهم للتطور العلمى وحقائق البحث النفسانى.

ولابد لنا من وقفة أمام ألمعية الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel الذى تأثر به أمثال بوزنكيت[٣٠] Bosanquet وكروتشي[٣١] Croce، فقد انتهى هيجل من تأملاته الفلسفية

---

(٣٠) بوزنكيت - برنارد (١٨٤٨ - ١٩٢٣م) فيلسوف إنجليزى. تأثر بهيجل. له: (المعرفة والواقع) و(المذهب الحق والنظرية الفلسفية للدولة).

(٣١) كروتشى - بنديتو (١٨٦٦ - ١٩٥٢م) فيلسوف ومؤرخ وناقد إيطالى. من أعماله:=



إلـى أن العقل والطبيعة المادية همـا «المطلق» بذاته لا مجرد مظاهـر أو دلائل على مطلق مجهول، وفوق ذلك فليس العقل والمادة حقيقتين متميزتين، ولكنهما عنصران تتكون منهما عمليـة إفصـاح المطلق عن نفسـه، وبعبارة أخـرى أن الفكر والحقيقة شـيء واحـد، وليس ثمة غير حقيقـة واحدة هي ما يدعوهـا «المطلـق»، وأن هـذه الحقيقة الروحيـة هي مرادف «الألوهة».

ومـع كل هذه التفاسـير الفلسـفية أخذ الشـك أو الإلحاد يطـرد لأن المتعلميـنٍ لا يعنيهـم أقـل منٍ الإيمـان بأن خلف هندسـة الوجود عقـلاً إلهيًا منظمًـا ضابطا، وعلـى وجه هذه الطبيعـة المسـحة الإلهية البـارة، فإذا لم يوقنـوا بذلك انتفى إيمـانهـم حتمًا.

وازدادت العلـوم تقدمًـا فـازداد الإيمـان تضـاؤلاً بيـن المتعلمين، لأن التعليـل العلمي للألوهة أخذ ينهزم، واكتفى المتفلسـفون بالكلام عن «الحاسـة الدينية» religious sense كبرهـان وجدانـى على وجـود الله، وما يعنـون بذلك إلا مزج العاطفـة بالعقيـدة الموروثـة، وما كانـت العاطفة فـى اعتبار السيكولوجيا برهانًا إيجابيًا على وجود الشيء.

أما في أمريكا ففلاسفتها الذين يعنون بالديانات يصرحون إمـا بـأن العقيدة الإلهية ليسـت عنصـرًا ضروريًا مـن الدين، أو بتصويرهـا مطابقـة لمثاليـة أو لفكـرة مجـردة أو لـروح مبهمـة للعالـم (يراجـع كتـاب Contemporary American Philosophy الفلسـفة الأمريكيـة المعاصـرة فـى مجلديـن،

=(الاستطيقـا كعلم للتعبير والألسنية العامة) و(ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيجل) و(الكامل في علم الجمال) و(الفلسفة كعلم للعقل).

ومؤلفات جوزيف ماكابي) وأما في الفلسفة الإنجليزية فلدينا الأستاذ تيلر[٣٢] Prof. Taylor يعلن بوضوح أن الفلاسفة المتدينين يرفضون الآن في جملتهم التعليل من نظام الوجود وجماله وقانونه وهندسته الطبيعية ويؤثرون الاهتمام بما ينعتونه «القيم» Values أو «المثاليات» Ideals معتبرين هذه القيم جوهر الأشياء، قائلين إن العقل في حالة خاصة من حالاته أشبه بحالة الصوفيين (أي بنوع من الكشف والشهود) يرى «الحقيقة» و«القيم» شيئًا واحدًا. والاتجاه الفلسفي الحديث عند هؤلاء أميل إلى اعتبار «القيم العليا» عينية أكثر منها معاني نفسية أو عقلية، ولو أن الفلاسفة مختلفون في تفسير معنى «العينية» التي توصف بها هذه «القيم» وأما فكرة الألوهة الكلاسيكية فضائعة وسط هذا التفكير ضياعًا تامًا.

وهذا الأستاذ كار Prof. H. W. Carr في كتابه (الأرضية المتغيرة للدين والأخلاق - Changing Backgrounds in Religion and Ethics) يدعي أن الرياضيين والطبيعيين ببحوثهم قد جعلوا من الصعب المزداد عسرًا تعيين مكان لله في تنظيم الكون وهندسته! أما الأستاذ برنجل باتيسون Prof. A. S. Pringle – Pattison فقد أشرت إلى وقوفه عكس هذا الموقف إذ يدلل على وجود الله بمحض إحساسنا بفكرة وجوده! وعندي أن كلاهما مخطىء لأن أساس بحثهما في ذلك وهمي على ما سأبينه بعد.

وليس شك في أن عدد العلماء الذين يؤمنون بالألوهة العرفية الآن أقل من عددهم منذ ربع قرن مضى، وليس بينهم

---

(٣٢) تيلر - إدوارد (١٩٠٨م) عالم أمريكي في الفيزيقا النووية. هنغاري الأصل. أسهم في أول عملية ناجحة لتفجير قنبلة هيدروجينية سنة ١٩٥٢م.



أحد من نوابغ العلماء المنتسبين للجيل الجديد مثل جوليان هكسلي(٣٣) Julian Huxley أو أينشتين(٣٤) Einstein ، فإن هؤلاء ينظرون إلى الألوهة نظرة تصورية مثالية تخالف العرف تمام المخالفة.

كذلك ليس شك في أن أنصار الفلسفة المادية لم يقلوا في هذا القرن عددًا عن أمثالهم في القرن الماضي، وما رأى هيكل(٣٥) Haeckel في كتابه (لغز الوجود the Riddle of the universe) الذي عززه بخنر(٣٦) Buchner عن أن المادة والطاقة هما واجهتان للمجهول - إلا مقدمة التنبؤ عن الحقائق الطبيعية التي كشفها القرن الحاضر والتي زادت الفلسفة المادية تمكينًا وإن لم تكن هذه الفلسفة مرتبطة بأية نظرية بالذات.

وكثيرون من هؤلاء الماديين يرون أن التفاعلات الكونية لا تشعر بوجود إله على الإطلاق سواء من بداية السدم إلى نشوء الكواكب إلى بلوغ الإنسانية منزلتها الحاضرة الممتلئة بالتناقض والمفاسد كما يعتقد أولئك الماديون.

وقد نشأ عن سريان هذه الحركة قيام مثل الأستاذ هفدنج Prof. Harold Hoffding (وهو فيلسوف دانماركي

---

(٣٣) جوليان هكسلي (١٨٨٧ - ١٩٧٥م) عالم أحياء وفيلسوف إنجليزي. له: (علم الحياة) و(في الدين بلا وحي) و(محاولات لرجل إنساني المذهب).

(٣٤) أينشتين - ألبرت من أشهر علماء الفيزياء في القرن العشرين. ألماني الأصل. هاجر إلى أمريكا. وهو صاحب نظرية النسبية. حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٢١م.

(٣٥) هيكل - إرنست هاينروخ (١٨٣٤ - ١٩١٩م) بيولوجي ألماني. صاحب مذهب التحول وتطور الأجنة. من أهم أعماله: (محاولات في علم النفس الخلوي) و(معلوماتنا الراهنة حول أصل الإنسان) و(الواحدية: صلة الوصل بين الدين والعلم) و(ألغاز الكون) و(معجزة الحياة).

(٣٦) بخنر - لودفيج (١٨٢٤ - ١٨٩٩م) طبيب وفيلسوف ألماني. قاوم الميتافيزيقا المثالية، وناصر المادية المتطرفة. ومن كتبه: (القوة والمادة) و(الطبيعة والمؤرخ).

متشكك) بالدعوة منذ ربع قرن إلى الاهتمام «بالقيم» بدل «الحقائق»، وبعبارة أخرى أنه يرى الاحتفاظ بالدين لصفاته الخلقية والعاطفية وبذلك وضع فكرة الله فى موضع ثانوى أو طرحها كلية. وقد أشرت إلى قيام فكرة «المثالية» أو «التصورية» Idealism فى أمريكا مقام فكرة الله العرفية. وعلى هذا النحو ينحو ولز(٣٧) H. G. Wells والأستاذ ودز(٣٨) Prof. R. s. Woods الذى يجهر بأنه يعد الألوهة مرادفة للروح الاجتماعى الممثل «the personified social spirit» وهناك طائفة من الفلاسفة المحدثين أمثال الأستاذ أمز(٣٩) Prof. Ames والأستاذ أوفرستريت Prof. Overstreet ترى أن الله هو صورة ملايين البشر، وأنه كائن حى يمثل خير ما فى البشرية. وعلى هذا القياس يمكننا بسهولة أن نوافق جوزيف ماكابى على قوله إن ثمة ما لا يقل عن عشرين إلهًا مختلفًا للأديان الفلسفية، كما أن ثمة نظير هذا العدد للأديان الأخرى!

وكما أنه لا يخطر فى بال أحد الآن فى البيئات الثقافية العالية أن يستدل على وجود الله من مجرد وجود النظام أو العدل أو الجمال فى الوجود، فكذلك لا يحلم أحد بهذا الاستدلال من مجرد الاحساس الدينى، لأن العقيدة الدينية مغروسة بحكم البيئة والوراثة وتزيدها العواطف حرارة وحماسة.

كذلك لا تحس البيئات العلمية بالحاجة إلى العقيدة

---

(٣٧) ولز - هربرت جورج (١٨٦٦ - ١٩٤٦م) روائى إنجليزى. تخصص فى القصص العلمى الداعية للإصلاح الاجتماعى. من مؤلفاته: (آلة الزمن) و(حرب العوالم) و(الرجل الخفي). ومن أشهر كتبه: (موجز تاريخ العالم).

(٣٨) وودز - روبرت (١٨٦٥ - ١٩٢٥م) اجتماعى أمريكى. له محاضرات فى علم الأخلاق الاجتماعية. ومن كتبه: (دور الجيرة فى بناء الأمة).

(٣٩) أمز - جوزيف سويتمان (١٨٦٤ - ١٩٤٣م) فيزيقى أمريكى. يعد حجة فى ديناميكا الغازات.



الإلهيـة ، وتؤمـن بأنه لـو أغلقت أماكن العبادة عشـر سـنين مثـلا واختفـى رجال الدين هـذه المدة لما أحـس بذلك أحد ، ولنشـأ جيل جديد لا حاجة له بغير القوانين الحكيمة والنظم الاجتماعية المفيدة ، ولا هم له إلا نشر العدل والإخاء والسعادة بيـن النـاس ، ولما فكر أبدًا فـي معنى الله بل لاسـتغرب لهذه الفكـرة عندما تعرض عليه . . والواقـع أنه حتى فى هذا الجيل تثبت إحصائيات الكنائس أن ثلثي من ينتسبون إلى المسيحية هـم عمليًا بعيدون عنهـا ولا صلة لهم بأية كنيسـة ، ومع هذا لا يمكـن مطلقًـا لأى بحاثـة اجتماعى أن ينكر أن الإنسـانية الحاضرة سـامية فى أخلاقها وإن كانت غير متمسكة بأديانها الموروثة ، وإنما ينصب تمسـكها على الاستفادة من تجاريب الحياة التى تعتبرها مصدر إلهامها الوحيد الجدير بالاحترام .

يقـول جوانز هوايت A. Gowans Whyte فى كتابه (ديانة العقـل الحر ـ The Religion of the Open Mind) إن الآداب جـزء صميـم من قصة النشـوء ، حينمـا الديانة علـى العكس منشـؤها الخوف ، وقد ولدت فى بداية التنبه الذاتى حينما بدأ الإنسان يتحسس كالأعمى فى تيه من الخرافة .

وإن الخوف من الخافى المجهول هو شـعلة جميع الأديان ، فإذا ما طرح الإنسان هذا الخوف جانبًا فإن ذهنه حتمًا ينقى . . ومثل هذا الرأى نلمحه عند الأستاذ هالدين J. B. S. Haldane فى كتابه (الحقيقة والعقيدة Fact and Faith كما أن لألدوس هكسلي[٤٠] Aldous Huxley فصلاً بليغًا فى كتابه (دراسات لائقـة ـ Proper Studies) عن « أبـدال الديانات » Substitutes

---

(٤٠) ألدوس هكسلى ـ ليونارد (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣م) كاتـب إنجليزى. اشتهر بالقصص الاجتماعية التهكمية. ومن أشهر قصصه ذات النبرة الصوفية: (فاقد البصر فى غزة). وله كذلك (العالم الطريف).

for religion أشار فيه إلى انحطاط الدين فى الغرب وإلى قيام حركات وطنية وسياسية واجتماعية وفنية وغيرها استوعبت اهتمام الناس إلى حد كبير أو صغير واقترنت بشىء من الطقوس التى ألفوها فى الحركات الدينية فأشبعت مشاعرهم بدرجات مختلفة، فلا غرابة بعد ذلك إذا اشتد انصراف الناس فى الغرب عن الديانات الموروثة وحتى عن العقيدة الإلهية فى ذاتها.

***

سادتى الأفاضل

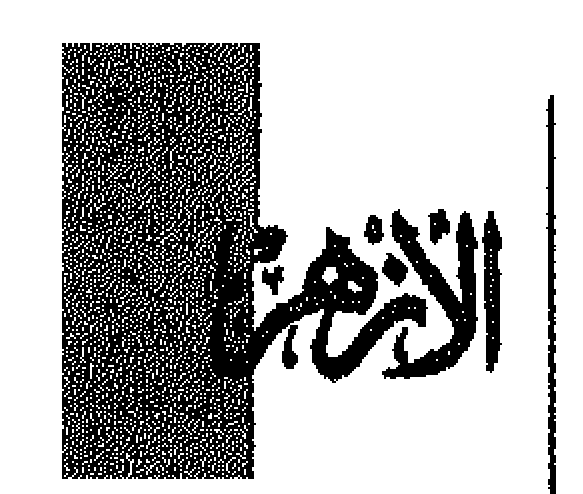
لقد عرضت على حضراتكم إلمامة عن اتجاه التفكير الحديث فى الغرب بشأن عقيدة الألوهة. أما رأيى الشخصى فى هذا الموضوع فقد أسلفته من قبل وإن يكن فى إيجاز، وقد نشر فى رسالة لى بعنوان (مذهبي).

ولما كنت عميق الإيمان راسخ العقيدة فإنى بكل ارتياح لبيت دعوتكم للإفاضة بهذا الحديث ولزيادة البيان عن دخيلة نفسى إزاء هذه التيارات المتضاربة.

وإنى أكرر لحضراتكم أيها السادة أن الشعور بالألوهة فى اعتبارى ليس مسألة خوف أو جهل على ما يرى بعض المفكرين الغربيين بل هى مسألة فطرية سيكولوجية مبعثها إحساس الجزء بالكل، وهل نحن فى المعنى التصوفى إلا أبناء الله؟ ولولا هذا الإحساس لما قال الحلاج[٤١] كلمته المشهورة التى أودت بحياته، لأن بيئته لم تفهمها فأساءت تأويلها وجنت عليه شر جناية.

---

(٤١) الحلاج - أبوعبدالله - الحسين بن منصور (٢٤٤ - ٣٠٩هـ/ ٨٥٧ - ٩٢٢م) من مشاهير المتصوفة المسلمين. له أشعار ومناجيات وأخبار. وله (كتاب الطواسين). ولقد تدخلت السياسة ومقولات التصوف الباطنى فى الحكم عليه بالإعدام.



أمـا عقيدة الألوهـة الخاطئة فـي بعض الأديـان فقد تكون ناجمـة عـن خوف أو جهل، ولكن لا شـأن لـي بمثل ذلك، إذ إنما أتكلم عن الإحساس الأصيل لا عن التقليد الموروث.

ويطيـب لـي تكـرار الإشـارة فـي حديثـي ومحاضراتي الفلسـفية الدينيـة إلـى آية الكرسـي المعدودة مـن جواهر القرآن الشـريف، فـإن هذه الآية الكريمة فـي نظرى مفتاح التصـوف الإسـلامى وباب الألوهـة الحقة، ولو أن الإسـلام تقليديًـا معـدود بمعـزل عـن التصـوف. ولكن هـذه الآية تملؤنى إحساسًـا بوحدة الوجود، واعتقادًا تامًا بأن الإسلام لا يفصـل بين الله والعالم كما تفعل بعض الأديان، وقد كان نبينـا عليه الصلاة والسـلام يتقشـف ويتصـوف معتزلاً فى جبل حراء عابدًا الله فى ملكوته.

فعقيـدة الألوهة فى ضوء الإسـلام لا تخالف العلم السـليم ولا الإحسـاس النفسـانى النقـى، وهـى بعيـدة كل البعد عن الخـوف أو الخرافـة أو الجهل لأنها تقوم علـى ركنين أولهما الإحسـاس الصوفى الفطرى: إحساس الجزء بالكل، وثانيهما وحدة الوجود التى تشـع عليها آية الكرسى فتظهرها لنا بكل وضـوح. ومـن الآيات القرآنيـة التى ينبع منهـا التصوف قوله تعالى:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١١٥)

وقوله:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

وقوله :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(النور: ٣٥)

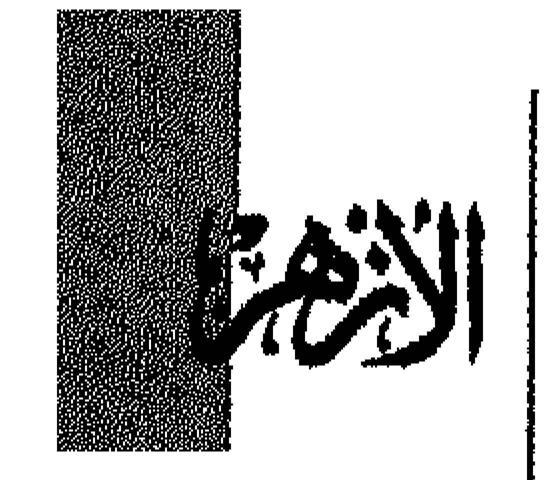
فهل لنا نحن -المسلمين- بعد ذلك أى حاجة بذلك النقاش البيزنطى بين المفكرين الغربيين الذين تجاهلوا الاعتبارين السالفين وحصروا تفكيرهم فى نواح بعينها ؟ ثم أليس فيما عرضه بعضهم من تفاسير مثالية ونحوها ما يندمج فى الركنين السالفى الذكر ؟

إن تأملاتى ودراساتى الطويلة تجعلنى أعتقد أنه لا يمكن التخلى فى النفس البشرية عن عقيدة الألوهة ، وإنما من الجائز تحويل هذه العقيدة وقتيًا أو تعويضها (كما أشار إلى ذلك الدوس هكسلي) تحت تأثير الحيرة أو الضغط الاجتماعى أو نحوه. ولعلى بهذا البيان قد أقنعت حضراتكم أن الإيمان الإلهى لا يتعارض بأى حال وتفهم قوانين الحياة واستلهامها لخير الإنسان ، بل أرى أن الأسماء والصفات المنسوبة إلى الله سبحانه وتعالى هى فى الواقع رموز إلى العوامل المختلفة التى أطلقها فى هذا الوجود لتكييفه وتنظيمه بين هدم وبناء وتبديل وتحويل على قاعدة الأسباب والنتائج ، وكثير منها رموز لا يجوز أن نسىء تفسيرها . وظاهرة «النبوة» ذاتها - خاضعة للحقائق العلمية النفسية كما أوضح ذلك فيلسوف الإسلام الفارابي[٤٢] .

ونحن إذ نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى وإذ نصلى يجب

---

(٤٢) الفارابى - أبونصر محمد بن محمد بن طرخان (٢٦٠ - ٣٣٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٥٠م) من مشاهير فلاسفة المسلمين. لقب بالمعلم الثانى. ومن آثاره: (آراء أهل المدينة الفاضلة) و(إحصاء العلوم) و(كتاب السياسة المدنية) و(كتاب الحروف).



أن نعلم أن الله جل شأنه ليس بحاجة إلى شيء من ذلك، فإن الزهو صفة آدمية وليس صفة ربانية، وإنما نحن المستفيدون من الابتهال والصلاة لأن في ذلك تقوية معنوياتنا وإشعارًا لنفوسنا بالواجب علينا. وقد تعالى الله عن أن يبدل قوانين الوجود الدقيقة التي سنها لنظامه البديع إكرامًا لخاطر أحدنا إذ معنى ذلك اضطراب الوجود بل خرابه، وإنما نتيجة الابتهال والصلاة تقوية احتمالنا وتهذيب مشاعرنا وشحذ تفكيرنا لما فيه الخير والصلاح حسب نواميس الوجود لا خلافًا لها. وحتى ما نسميه الحظ إنما يتبع قانون الأرجحية law of probability، وكلما اتسع نطاق الكشف العلمي ازداد إيماننا بصيرة بمعاني الألوهة السامية وبقوانين الحياة ونظام الوجود. كما أن الإشراق الصوفي و«لذة الأنس بالله» ليس خلفهما سوى التأمل الكوني العميق وإرهاف الأعصاب وتقوية الحدس ولا يمكن إدراك الله سبحانه وتعالى إلا بالحس الصوفي الذي يسنده العلم الفلسفي لا بالعلم ولا بالفلسفة وحدهما. وقد يساعد كل أولئك على قراءة الأفكار وتقدير العواقب لا على مجرد التنبؤ بالمستقبل والكشف والإلهام مهما كان التوغل في التأله.

كثيرًا ما ذكرت في أحاديثي الدينية أن الإسلام يعتمد أساساً على التقوى والعلم، وإذا كان إخواننا اليهود بالرغم من روحهم المحافظة لم يترددوا في تفسير التوراة تفسيرًا علميًا، فما أحرانا نحن بذلك وهذا كتابنا يوحي بالتفكير والتأمل في كثير من آياته.

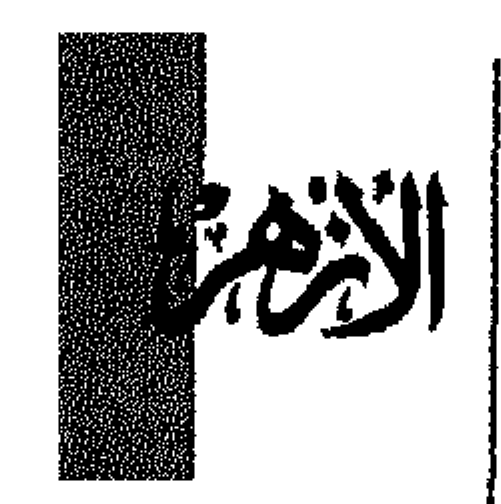
وهذا القرآن الشريف في جميع أجزائه يتمشى مع العلم الصحيح لمن أراد أن يفهمه على هذا الوجه من ذوي الألباب، وإن فهمه العامة غالبًا فهمًا آخر بالنسبة لرموزه الدقيقة وذلك

علـى قدر عقولهم. بل كذلك الكتاب المقدس قابل للتفسـير العلمى الشـامل وقد وفق إلى ذلك علمـاء الغرب اللاهوتيون توفيقًـا عظيمًا، فغيـر معقول أن يكون القرآن الشـريف دونه صلاحيـة لهـذا التفسـير الـذى يجـب أن يشـمل كل شـىء مـن عرفان صفـات الله تعالى إلى جميع الشئون الإنسـانية. والمعرفـة الصحيحة تأتي عن طريق البحـث العلمى والتذوق لفلسـفة الديـن لا عن طريق الإشـراق وحده ولـو كان صاحبه السـهروردي(٤٣). أقـول هـذا وأنا أعرف قـدر التصوف كما أسلفت.

ليس الإحسـاس بوجود الله دليلاً على وجود الله كما يدعى الأسـتاذ برنجـل باتيسـون من ناحيـة المنطـق، كذلك ليس التدليـل علـى أن لـكل شـىء صانعًا مـا ينتهي بنا إلـى إثبات الخالـق، وإن توهـم ذلك كثيـرون من المعلمين فـى تآليفهم المدرسـية المفسـدة لأذهـان التلاميـذ إذ لابد لهـذا المنطق الغريـب مـن أن يؤدى إلى سـؤال كفـرى عن الصانع نفسـه! ولا قيمـة الآن لحجـج أهـل الظاهـر الذيـن طالمـا ابتلى بهم وبجمودهم الحكماء والعلماء فى سالف العصور.

إن صفات الله المكشـوفة لنا ليسـت جميـع صفاته تعالى بـل لعلها لا تتعدى صفات العوامـل الكونية الضابطة للوجود باعتبـار هـذا الوجود كائنًـا دوريًا، ومظاهـر الطبيعة جميعها وحقائقهـا متمشـية مع تلك الصفـات أو العوامـل. والطريق العلمـى الممهـد لتعريف الألوهـة هو الطريق السـيكولوجى

(٤٣) السهـروردى - شهاب الدين عمر (٥٣٩ - ٦٣٢هـ/١١٤٥ - ١٢٤٣م) صاحب فلسفة الإشراق. ومن كتبه: (عوارف المعارف). ولقد تميز بوصف «المقتول» عن السهروردى - الشافعى - شهاب الدين يحيى - لأن صاحب فلسفة الإشراق قد انتهت حياته بالموت صبرا فى حلب - بعد صراع بينه وبين الفقهاء.



لأنه حقيقة واقعة فطرية ليست بأى حال نتيجة الوهم أو الجهل، وأعنى به إحساس الجزء بالكل واجتذابه إليه. ولعل هذه الظاهرة، ظاهرة الإحساس بالألوهة، هى التي أوحت إلى الجنرال اسمطس General J. c. smuts مذهب فلسفة «الكل» الذى يفسر ما يسميه العلماء بالتطور الإبداعى أو التطور الفجائى فى الوجود مما يتعارض مع نظرية الميكانيكية البحتة فى الطبيعة، وعنده أن العالم بأسره مدفوع بطبعه إلى الانحراف عن الميكانيكية البحتة، ومتجه نحو تكوين «الكل»، وهذا هو المثل الأعلى الذى يسعى العالم بأسره إلى تحقيقه، وبتحقيقه تتحق منه غايته، وإذا كان هذا الاتجاه نحو تكوين «الكل» أمرًا مشاهدًا، فى جميع أنحاء الكون على اعتبار أن فى طبيعة الأشياء نزعة متجهة على الدوام نحو تكوين هيئات منتظمة يسمى كل واحدة منها «كلا»، فلعله مما يقنع بعض الماديين بهذه الجاذبية الطبيعية التى أشرت إليها والتى أعدها رمز الإحساس بالألوهة ولذة الأنس بالله التى لا تعادلها لذة، كما يقول حجة الإسلام الغزالى بعد تصوفه.

يقول شاعر أمريكا الفيلسوف ج. سنتيانا G. Santayana إن الدين قصة خرافية ابتدعها الضمير، ومع ذلك فهو فى الوقت ذاته صاحب فلسفة واقعية نقدية، وقد أطلق على الصور الذهنية والأفكار وغير ذلك اسم «الماهيات» Essences أو الجواهر. وعلى هذا فكل ما يصوره الحس من الصور المعهودة لنا وكل النظريات العلمية والمعتقدات الدينية إنما هو من هذا العالم، عالم الجواهر. ويمكن اعتبار هذه الأشياء كلها ـ أى النظريات العلمية والمعتقدات الدينية إلخ.. أساليب مختلفة، وإن كانت غير متناقضة للتعبير عن حقيقة واحدة فوق طور الإدراك.

إن معظم الذين حاولوا التوفيق بين العلم والدين قد فشلوا فشلاً ذريعًا لأنهم لجئوا إلى أساليب تعسفية، وقد حاولت أيها السادة فى هذا الحديث أن أبسط لحضراتكم مثالاً لما أرجو أن يكون توفيقًا ناجحًا فى مسألة المسائل الدينية والتصوفية متخذًا من علم السيكولوجيا مفتاح تفسيرى، مبتعدًا كل الابتعاد عن تعقيد هذه القضية الوجدانية، فلعلى أصبت بذلك وليس لامرئ إلا ما نوى.

وأخيرًا أشكر لحضراتكم رحابة صدوركم وحسن استماعكم وهذه العناية الجدية بالبحث والتأمل، فإن كل هذا يتفق وتقاليد الإسلام السمحة فى أنضر عصوره، وما أولانا بهذه الصفات فى هذا العهد الجديد السعيد، عهد الحرية والاستقلال والثقافة الذى سماه دولة الرئيس الجليل(٤٤) مستبشرًا «عهد فاروق»(٤٥).

---

(٤٤) الرئيس الجليل - مصطفى النحاس باشا (١٢٩٣ - ١٣٨٤هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٦٥م) زعيم حزب الوفد المصرى بعد سعد زغلول باشا منذ عام ١٩٢٧م. ولقد ظل فى مكانته السياسية والحكومية حتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢م.

(٤٥) فاروق الأول (١٣٣٨ - ١٣٨٤هـ/ ١٩٢٠ - ١٩٦٥م) ملك مصر، تولى الملك بعد أبيه الملك فؤاد عام ١٩٣٦م. واضطرته ثورة يوليو إلى التنازل عن العرش فى يوليو عام ١٩٥٢م.

« ٢ »

لماذا أنا ملحد(٤٦)؟

للدكتور/ إسماعيل أدهم

(كتبت على إثر مطالعة عقيدة الألوهة للدكتور أحمد زكى أبو شادي)

لـــمـــا جـــهـــلـــت مـــن الـــطـــبـــيـــعـــة أمـــرهـــا
وجـــعـــلـــت نـــفـــسـك فـــى مـــقـــام مـعـلـل
أثـــبـــت ربـــــــا تـــبـــتـــغـــى حـــلا بـــه
لـــلـــمـــشـــكـــلات فـــكـــان أكـــبـــر مـــشـــكـــل!

(٤٦) نشر هذا المقال بمجلة «الإمام» عدد أغسطس ١٩٣٧م بالقاهرة.

توطئة:

الواقع أننى درجت على تربية دينيّة لم تكن أقوم طريق لغرس العقيدة الدينية فى نفسـى، فقد كان أبى من المتعصبين للإسلام والمسلمين، وأمى مسيحية بروتستانتية ذات ميل لحرية الفكر والتفكيـر، ولا عجب فى ذلـك فقد كانت كريمة البروفيسـور وانتهـوف الشـهير، ولكـن سـوء حظى جعلهـا تتوفـى وأنا فى الثانية من سـنى حياتى، فعشت أيام طفولتى حتى أواخر الحرب العظمى مع شـقيقتى فـى الآسـتانة، وكانتا تلقنانى فـى تعاليم المسـيحية وتسـيران بى كلٍ يوم أحد إلى الكنيسة، أما أبى فقد انشـغل بالحرب وكان متنقلا بيـن ميادينها فلم أعرفه أو أتعرف عليه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة، غيـر أن بعد والدى عنى لم يكن ليمنعه عن فرض سـيطرته علىَّ مـن الوجهة الدينيـة، فقد كلـف زوج عمتى وهو أحد الشـرفاء العـرب أن يقـوم بتعليمـى من الوجهـة الدينية، فـكان يأخذنى لصلاة الجمعـة ويجعلنى أصوم رمضان وأقـوم بصلاة التراويح، وكان هذا كله يثقل كاهلى كطفل لم يشتد عوده بعد، فضلاً عن تحفيظـى القرآن، والواقـع أنى حفظت القـرآن وجودته وأنا ابن العاشـرة، غير أنى خرجت ساخطًا على القرآن لأنه كلفنى جهدًا كبيرًا كنت فى حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسى، وكان ذلك من أسـباب التمهيد لثورة نفسـية على الإسـلام وتعاليمه، ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانت شقيقتاى وقد نالتا قسـطًا كبيرًا من التعليم فى كلية الأمريكان بالآستانة، لا تثقـلان علىَّ بالتعليم الدينى المسـيحى وكانتا قد درجتا على اعتبـار أن كل ما تحتويه التـوراة والإنجيل ليس صحيحًا، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر فى نفسيتى.

كانت مكتبة والدى مشحونة بآلاف الكتب وكان محرما علىَّ الخروج والاختلاط مع الأطفال الذين هم من سنى، ولقد عانيت أثر هذا التحريم فى فردية تبعدنى عن الجماعة فيما بعد، ولم يكن فى مستطاعى الخروج إلا مع شقيقتى، وقد ألفت هذه الحياة، وكنت أحبهما حبا جما فنقضى وقتنا معا نطالع ونقرأ، فطالعت وأنا ابن الثامنة مؤلفات عبد الحق حامد وحفظت الكثير من شعره، وكنت كلفا بالقصص الأدبية فكنت أتلو لبلزاك (٤٧) وجى دى موباسان (٤٨) وهيغو من الغربيين آثارهم، ولحسين رحمى الروائى التركى المشهور قصصه، وأتى والدى إلى الآستانة وقد وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة، ولكن لم يبقَ كثيرا حيث غادرها مع مصطفى كمال (٤٩) إلى الأناضول ليبدأ مع زعماء الحركة الاستقلالية حركتهم، وظللت أربع سنوات من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢٣م فى الآستانة قابعا أتعلم الألمانية والتركية على يد شقيقتى والعربية على يد زوج عمتى، وفى هذه الفترة قرأت لداروين (٥٠) أصل الأنواع وأصل الإنسان وخرجت من قراءتهما مؤمنا بالتطور، وقرأت مباحث هكسلى وهيكل والسر ليل وبيجهوت وأنا لم أتجاوز الثالثة عشرة من سنى حياتى، وانكببت أقرأ فى هذه الفترة لديكارت وهوبس وهيوم وكانت، ولكنى لم أكن أفهم كل ما أقرأه لهم، وخرجت

---

(٤٧) بلزاك ـ هو نوره دى (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠م) قصصى فرنسى شهير، تميزت رواياته بالأبعاد الأخلاقية. من أعماله: (الكوميديا البشرية) و(أوجينى جرانده).

(٤٨) جى دى موباسان (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣م) أديب فرنسى. من أدباء الواقعية. من أعماله: (كرة شحم) و(حكايات دجاجة الأرض).

(٤٩) مصطفى كمال ـ أتاتورك (١٨٨٠ ـ ١٩٣٨م) مؤسس الجمهورية التركية العلمانية الحديثة. ألغى الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م.

(٥٠) داروين ـ تشارلز (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) عالم طبيعة إنجليزى، اشتهر بنظرية الانتخاب الطبيعى، والنشوء والارتقاء. وعنها صدر كتابه الشهير: (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩م.

من هذه الفترة نابذا نظرية الإرادة الحرة، وكان لسبينوزا (٥١) وأرنست هيكل الأثر الأكبر فى ذلك، ثم نبذت عقيدة الخلود.

غير أن خط دراستى توقف برجوع والدى إلى الآستانة ونزوحه إلى مصر واصطحابه إياى، وهنالك فى الإسكندرية خطوت أيام مراهقتى، ولكن كان أبى لا يعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقبلة، فكان يفرض علىَّ الإسلام والقيام بشعائره فرضا، وأذكر يوما أنى ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة وقلت له: إنى لست بمؤمن، أنا داروني أؤمن بالنشوء والارتقاء، فكان جوابه على ذلك أن أرسلنى إلى القاهرة وألحقنى بمدرسة داخلية ليقطع علىَّ أسباب المطالعة، ولكنى تحايلت على ذلك بأن كنت أتردد على دار الكتب المصرية وأطالع ما يقع تحت يدى من المؤلفات التركية والألمانية يومى الخميس والجمعة، وهما من أيام العطلة المدرسية، وكنت أشعر وأنا فى المدرسة أنى فى جو أحط منى بكثير، نعم لم تكن سنى تتجاوز الرابعة عشر ولكن كانت معلوماتى فى الرياضيات والعلوم والتاريخ تؤهلنى لأن أكون فى أعلى فصول المدارس الثانوية، ولكن عجزى فى العربية والإنجليزية كان يقعد بى عن ذلك.

وفى سنة ١٩٢٧م غادرت مصر بعد أن تلقيت الجانب الأكبر من التعليم الإعدادى فيها على يد مدرسين خصوصيين ونزلت تركيا والتحقت بعدها بمدة بالجامعة، وهنالك للمرة الأولى وجدت أناسًا يمكننى أن أشاركهم تفكيرهم ويشاركوننى، فى الآستانة درست الرياضيات وبقيت كذلك ثلاث سنوات وفى

---

(٥١) سبينوزا ـ باروخ (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م) فيلسوف هولندى. من أصل يهودى. يعد من مشاهير فلاسفة التنوير الغربى. أنكر الوجود المستقل لله، معتبرا إياه روحا سارية فى الطبيعة ـ العالم ـ حرمه اليهود، وحرموا كتاباته. من أبرز أعماله: (مقالة فى اللاهوت والسياسة) و(مقالة فى إصلاح الإدراك) و(النظام الأخلاقي).



هـذه الفترة أسست (جماعة نشـر الإلحاد) بتركيـا وكانت لنا مطبوعات صغيرة كل منها فى ٦٤ صفحة أذكر منها :

الرسالة السابعة : الفرويديزم ، الرسالة العاشرة : ماهية الدين ، الرسـالة الحادية عشـر : قصة تطور الدين ونشأته ، الرسالة الثانية عشـرة : العقائد ، الرسـالة الثالثة عشـرة : قصة تطـور فكرة الله ، الرسالة الرابعة عشرة : فكرة الخلود .

وكان يحـرر هـذه الرسـائل أعضـاء الجماعـة وهـم طلبة فى جامعة الآسـتانة تحت إرشـاد أحمد بك زكريا أسـتاذ الرياضيات فى الجامعة والسـيدة زوجته ، وقد وصلت الجماعة فى ظرف مدة قصيـرة للقمة فكان فى عضويتهـا ٨٠٠ طالب من طلبة المدارس العليـا وأكثر مـن ٢٠٠ من طلبـة المـدارس الثانويـة الإعدادية ، وبعـد هـذا فكرنا فـى الاتصال بجمعية نشـر الإلحـاد الأمريكية التى يديرها الأسـتاذ تشارلز سـمث ، وكان نتيجة ذلك انضمامنا له وتحويل اسـم جماعتنا إلى (المجمع الشرقى لنشر الإلحاد) ، وكان صديقى البحاثة إسماعيل مظهر [٥٢] فى ذلك الوقت يصدر مجلة العصور فى مصر ، وكانت تمثل حركة معتدلة فى نشر حرية الفكر والتفكير والدعوة للإلحاد ، فحاولنا أن نعمل على تأسـيس جماعة تتبع جماعتنا فى مصر وأخرى فى لبنان واتصلنا بالأسـتاذ عصـام الديـن خفنـى ناصف فى الإسـكندرية وأحد الأسـاتذة فى جامعة بيروت ولكن فشلت الحركة !

وغادرت تركيا فى بعثة لروسـيا سنة ١٩٣١م وظللت إلى عام ١٩٣٤م هنالـك أدرس الرياضيات وبجانبها الطبيعيات النظرية ، وكان سـبب انصرافى للرياضيات نتيجة ميل طبيعى لى حتى لقد

(٥٢) إسماعيـل مظهر (١٨٩١ - ١٩٦٢م) عالم لغوى، وكاتـب، ومترجم. ترجم (أصل الأنـواع) لداروين. رأس تحرير مجلة (المقتطف) وأصدر مجلة (العصور) ونال عضوية مجمع اللغة العربية.

فرغت من دراسة هندسة أوقليدس (٥٣) وأنا ابن الثانية عشر، وقرأت لبوانكاريه (٥٤) وكلاين (٥٥) ولوباجفسكى (٥٦) مؤلفاتهم وأنا ابن الرابعة عشرة، وكنت كثير الشك والتساؤل فلما بدأت بهندسة أوقليدس وجدته يبدأ من الأوليات، وصدم اعتقادى فى قدسية الرياضيات وقتئذ فشككت فى أوليات الرياضيات منكبا على دراسة هوبس ولوك وبركلى (٥٧) وهيوم وكان الأخير أقربهم إلى نفسى، وحاول الكثيرون إقناعى بأن أكمل دراستى للرياضة، ولكن حدث بعد ذلك تحول لا أعرف كنهه لليوم، فالتهمت المعلومات الرياضية كلها فدرست الحساب والجبر والهندسة بضروبها وحساب الدوالى والتربيعات ولكن الشك لم يغادرنى، فسلمت جدلا بصحة أوليات الرياضة ودرست، وما انتهيت من دراستى حتى عنيت بأصول الرياضة، وكان هذا الموضوع سبب نوال درجة الدكتوراه فى الرياضيات البحتة من

(٥٣) أوقليدس (القرن الثالث ق.م) رياضى يونانى. نشأ فى الإسكندرية. ووضع مبادىء الهندسة المسطحة فى كتابه (الأصول). وله ـ أيضا ـ: (الظاهرة) و(التقويم) و(البصريات) و(القسمة).

(٥٤) بوانكاريه ـ هنرى جول (١٨٥٤ ـ ١٩١٢م) عالم فرنسى. شغل أستاذ كرسى الفيزياء الرياضية وحساب الاحتمالات. ونال عضوية أكاديمية العلوم والأكاديمية الفرنسية. ومن أعماله: (دروس فى الفيزياء الرياضية) و(العلم والفرضية) و(قيمة العلم) و(العلم والمنهج).

(٥٥) كلاين – فيلكس (١٨٤٩ – ١٩٢٥م) عالم رياضة ألمانى. أشتهر ببحوثه فى الهندسة ونظرية الدوال. من مؤلفاتة (مسائل شهيرة فى المبادئ الهندسية).

(٥٦) لوبا جفسكى – نيكولاى إيفا نوفتش (١٧٩٣ – ١٨٥٦م) عالم رياضة روسى. كان رائدا فى الهندسة اللاإقليدية، ومبدعا فى الهندسة. من أبحاثه: (بحوث هندسية عن نظرية المتوازنات).

(٥٧) بركلى – باركلا – شارلى جلوفر (١٨٧٧ – ١٩٤٤م) فيزيائى إنجليزى. نال جائزة نوبل ١٩١٧م لاكتشافه أشعة إكس المميزة للعناصر. وهو واضع قوانين تشتت أشعة إكس وقوانين نفاذها فى المادة.

جامعة موسكو سنة ١٩٣٣م، وفى نفس السنة نجحت فى أن أنال العلوم وفلسفتها إجازة الدكتوراه لرسالة جديدة عن الميكانيكا الجديدة التى وضعتها مستندًا على حركة الغازات وحسابات الاحتمال وكانت رسالة فى الطبيعيات النظرية.

وخرجت من كل بحثى بأن الحقيقة اعتبارية محضة وأن مبادئ الرياضيات اعتبارات محضة، وكان لجهدى فى هذا الموضوع نهاية، إذ ضمنت النتائج التى انتهيت إليها بكتابى الرياضيات والفيزيقا الذى وضعته بالروسية فى مجلدين مع مقدمة مسهبة فى الألمانية، وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى، ولشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالا وأكثر اطمئنانًا من حالتى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد دينى.

وقد مكن ذلك الاعتقاد فى نفسى الأوساط الجامعية التى اتصلت بها إذ درست مؤقتًا فكرتى فى دروس الرياضيات بجامعة موسكو سنة ١٩٣٤م.

إن الأسباب التى دعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة منها ما هو علمى بحت ومنها ما هو فلسفى صرف ومنها ما هو بين بين، ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى ومنها ما يرجع لأسباب سيكلوجية، وليس من شأنى فى هذا البحث أن أستفيض فى ذكر هذه الأسباب، فقد شرعت منذ وقت أضع كتابا عن عقيدتى الدينية والفلسفية ولكن غايتى هنا أن أكتفى بذكر السبب العلمى الذى دعانى للتخلى عن فكرة الله وإن كان هذا لا يمنعنى من أن أعود فى فرصة أخرى (إذا سنحت لي) لبقية الأسباب.

وقبل أن أعرض الأسباب لا بد لى من الاستطراد لموضوع إلحادى، فأنا ملحد ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه، فأنا

لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف فى إيمانه، نعم لقد كان إلحادى بدءا ذى بدء مجرد فكرة تساورنى ومع الزمن خضعت لها مشاعرى فاستولت عليها وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة، ولى أن أتساءل: ما معنى الإلحاد؟

يجيبك لودفيج بخنر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر:

الإلحاد هو الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة.

والواقع أن هذا التعريف سلبى محض، ومن هنا لا أجد بدا من رفضه، والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى كملحد هو:

الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته وأن ثمة لا شىء وراء هذا العالم.

ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابى محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلا على عدم وجود الله، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما فى تعريف بخنر من معان.

يقول عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م):

أنه لا دليل عقلى أو علمى على وجود الله وأنه ليس هنالك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله.

وهذا القول صادر من أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة، وقول عمانوئيل كانط لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس [٥٨] الشاعر اللاتينى

(٥٨) لوقريتوس - تيتوس لوكريتوس كادوس (٩٩ - ٥٥ ق . م) شاعر رومانى. هو ناظم قصيدة «عن طبيعة الأشياء» التى تعد من أروع ما خلفه الشعراء الرومان. ولقد حاول فيها إقناع الإنسان بأنه سيد نفسه، وليس فى حاجة إلى مخافة الآلهة. كان معترفا بوجود الآلهة، لكنه أنكر حاجة الإنسان إليها، لأن الكون - برأيه - قد وجد وفقا لقوانين الطبيعة التى تعمل على تجميع الذرات وخلق الكون وما فيه.



منذ ألفي سـنة ، ولهذا السبب وحده تقع على كثيرين من صفوف المفكريـن والمتنوريـن بل الفلاسـفة مـن اللاأدرييـن ، وهربرت سبنسـر الفيلسـوف الإنجليـزى الكبير وتوماس هكسـلى (٥٩) البيولوجـى والمشـرح الإنجليـزى المعروف قد كانـا لا أدريين ، ولكـن هل عدم قيـام الأدلة على عـدم وجود الله ممـا يدفع المرء للاأدرية (٦٠)؟

الواقـع الذى ألمسـه أن فكـرة الله فكرة أوليـة ، وقد أصبحت من مسـتلزمات الجماعات منذ ألفى سـنة ، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنـان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسـفية أو مكانها فى عالم الفكـر الإنسـانى لا يرجع لمـا فيها مـن عناصر القـوة الإقناعية الفلسـفية وإنما يعود لحالة يسـميها علماء النفس التبرير ، ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات وجود السـبب الأول قيمة علمية أو عقلية .

ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عـن حالات بدائية ، وأنها شـقت طريقها لعالـم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسـباب الأشـياء الطبيعيـة ، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها .

إن العالـم الخارجـى (عالم الحادثـات) يخضع لقوانين الاحتمـال ، فالسـنة الطبيعيـة لا تخرج عن كونها أشـمال القيمـة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما

---

(٥٩) توماسـ هكسلـى – هـنرى (١٨٢٥ – ١٨٩٥م) بيولوجى إنجليـزى. من دعاة الدارونية جمعت أبحاثه فى ثلاثة عشر مجلدا.

(٦٠) اللا أدرية: اتجـاه فلسفى قديم، يرجع تاريخه إلى شكّاك اليونان القدماء. ينكر أصحابه قيمة العقل وقدرته على المعرفة، ويتوقفون عن العلم وعن الحكم، ويترددون ويرتابون فـى الإثبات والنفى. ولقد ظهر هذه الاتجاه جزئيـا فى الفلسفة الأوربية الحديثة عند هيوم (١٧١١ – ١٧٧٢م).

يماثلها من حوادث، والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لسلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض، وقد نجحنا فى ساحة الفيزيقا (الطبيعيات) فى أن نثبت أن (أ) إذا كانت نتيجة للسبب، فإن معنى ذلك أن هناك علاقة بين الحادثتين (أ) و(ب)، ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (أ) و(ج) وبينها وبين (د) و (هـ) فكأنه يحتمل أن تكون نتيجة للحادثة (ب) وقتًا وللحادثة (ج) وقتا آخر وللحادثة (د) حينا وللحادثة (هـ) حينا آخر.

والذى نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التى هى أساس الفكر العلمى الحديث، ونحن نعلم أن قرارة النظر الفيزيقى الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة، وليس لى أن أطيل فى هذه النقطة وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتى العلمية لمعهد الطبيعيات الألمانى والمرسلة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤م والتى تليت فى اجتماع ١٧ سبتمبر ونشرت فى أعمال المعهد لشهر أكتوبر عن المادة وبنائها الكهربائى، وقد لخصت جانبا من مقدمتها بجريدة البصير عدد ١٢١٢٠ المؤرخ الأربعاء ٢١ يوليه سنة ١٩٣٧م، وفى هذه المذكرة أثبت أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة فإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه:
Science et Methode

فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف:



إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب.

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده -انظر لصديقنا البحاثة إسماعيل مظهر ملقىّ السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء، ص ١٦٣-١٦٧ منذ تفتح العقل الإنسانى. غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى:

Mathematik und physic ج٢ فصل٧

فى صدد الكلام عن الصدفة والتصادف، وهذا المعنى لا تؤتينى الألفاظ العادية للتعبير عنه لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السبب والنتيجة، لهذا سنحاول أن نحدد المعنى عن طريق ضرب الأمثلة.

لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه، فلنرمز لكل زهر بالوجه الآتى فى كل من الزهرين:

يك : دو : ثه : جهار : بنج : شيش

ل١ : ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ فى زهر النرد الأول

ك١ : ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ فى زهر النرد الثاني

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها.

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر النرد، ولكن لنا أن نتساءل:

ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط، فمثلا لو فرضنا أنه فى المرة «ن» كانت النتيجة هى:

ل ٦ x ك ٦ = شيش x شيش = دش
فما أوجه مجيء الدش في المرة (ن + س) ؟
إذا فرضنا أن الحالة الاجتماعية هي «ح» كان لنا أن نخلص من ذلك بأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن = س) من المرات وكان مجموعها مثلا ٣٦ مرة فاحتمال مجيء الدش هنا في الواقع : ١ / (ن + س)

وبما أن ق + س = ٣٦ مرة فكأن النسبة الاحتمالية هي ١ / ٣٦.

فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة لما عد ذلك غريبا لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لابد من مجيئه لأن هذا يدخل في باب آخر قد يكون باب الرجم، وكلما عظمت مقدار «س» في المعادلة (ن + س) تحدد مقدار «ح» أي النسبة الاحتمالية وذلك خضوعا لقانون الأعداد العظمى في حسابات الاحتمال، ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى في المقادير الكبيرة.

مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥٪، أعني أن ٩٥ حالة تنجح من ١٠٠ حالة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا إحدى المستشفيات لإجراء هذه العملية فإن الجراح يكون مطمئنا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه العمليات بنجاح، فإذا ما سألته : يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في هذه العملية؟ فإنه يجيبك ٩٥ في المائة، ويكون مطمئنا لجوابه، ولكنك إذا سألته : يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في العملية التي ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت ولا يجيبك، لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى قانون العدد في أنها تتصل بالمقادير



الكبيـرة والكثـرة العديدة، ويكـون مفهوم سـنة الصدفة وجه الاحتمـال فى الحـدوث، ويكون السـبب والنتيجـة من حيث همـا مظهران للصلـة بين حادثتين فى النطـاق الخاضع لقانون العـدد الأعظـم الصدفـى حالـة إمكان محـض. ومعنـى هذا أن السـببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفـى، فمثلا لـو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعنى بنسـبة ٣٦ : ١ مرة ففى الواقع نحن نكون قد كشـفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجىء الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شيء.

إذا يمكننا أن نقول إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددهـا الأعظـم تعطى حالات إمـكان، ولمـا كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظـم، وهكذا خاضعة فى حركتهـا هذه لحالات الإمكان التـى يحددهـا قانون العـدد الأعظم الصدفـى، ومثل العالم فـى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نـوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحركة فى الاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لانهائية، فلا شـك أنـه فى دورة من هذه الـدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقـال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائيـة لا بـد أن يخرج كتاب أصل الأنـواع وكذا القرآن مجموعا منضدا مصححا من نفسه. ويمكننا إذن أن نتصور أن جميـع المؤلفات التى وضعت سـتأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمـزا لحالـة الاحتمـال و(ص) رمـزًا للنهائيـة كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات:

ح = ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة.

يقول ألبرت أينشتاين صاحب نظرية النسبية في بحث قديم له:

مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئا، فلما أخذ في مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصل لكنهه، هذا الشيء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه، كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشيء هو الله.

ويقول السير جيمس جينز (٦١) الفلكى الإنجليزى الشهير:

إن صيغة المعادلة التى توحد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لنابه، ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون وتربطها فى وحدة عقلية فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على طبيعة الأشياء الرياضية، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون، هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله.

---

(٦١) السير جيمس جينز (١٨٧٧ - ١٩٤٦م) عالم رياضة وفيزيقا وفلك بريطانى. من مؤلفاته: (النظرية الديناميكية للغازات) و(النظرية الرياضية للكهرباء والمغناطيسية) و(مسائل فى علم الكون وديناميكا النجوم) و(الكون الغامض) و(الكون المحيط بنا).



وأنت ترى أن كليهما والأول من أساطين الرياضيات فى العالم والثانى فلكى ورياضى من القدر الأول عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة والتى يتبع دستورها العالم، لا لشىء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما.

الواقع أن أينشتين فى مثاله انتهى إلى وجود شىء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه (مؤلفه)، والواقع أن هذا احتمال محض، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل، ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة، أما ما يقول السير جيمس جينز فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء لأن نجاح الوجهة الرياضية فى ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء.

فالأشياء هى الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة، وبعبارة أخرى أن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فللواقع حالة خصوصية منه، ومن هنا يتضح أنه لا غرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه، بل كل الغرابة فى عدم انطباقها لأن لكل كون رياضياته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضرورى لكونه كونًا.

من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية فى العالم، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء

هـذا العالـم، وهـذا خطأ لأن العالـم إن كان نظـام ما هو واقع خاضعا لنظام ما هو ممكن فهو حالة احتمال من عدة حالات والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل.

خاتمة

إن الصعوبـة التـى أرى الكثيرين يواجهوننـى بها حينما أدعوهـم إلـى النظـر إلـى العالم مسـتقلاً عن صلة السـبب والنتيجة، وخاضعا لقانون الصدفة الشامل ترد إلى قسمين:

الأول: لأن مفهوم هذا الكلام رياضى صرف ومن الصعب التعبير فى غير أسـلوبها الرياضى، وليس كل إنسان رياضى عنده القدرة على السير فى البرهان الرياضى.

الثانى: أنها تعطى العالم مفهوما جديدا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التى ألفناها، ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها لأن التغير الحادث أساسـى يتناول أسس التصور نفسه.

ولهذه الأسـباب وحدها كانت الصعوبـة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة ومانعة الكثيرين الإيمان بها.

أما أنا شـخصيا فلا أجد هذه الصعوبة إلا شكلية، والزمن وحـده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدا من الثبات على عقيدتـى العلمية والدعـوة إلى نظريتى القائمـة على قانون الصدفـة الشـامل الذى يعتبر فـى الوقت نفسـه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله.

٣٠

لماذا أنا مؤمن؟

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

[ملحق بمجلة «أدبى»]

[توطئة]

نشرت مجلة (الإمام) مقالاً للدكتور إسماعيل أحمد أدهم بعنوان «لماذا أنا ملحد؟» كان بمثابة رد على رسالتي «عقيدة الألوهة» وهي الحلقة الثانية من بحوثي الإسلامية الفلسفية، وقد سبق للدكتور أدهم أن كتب ينتقدني في مجلة (أدبي) وفي غيرها كما كتب إليَّ وحادثني خاصة في ذلك فأحببت أن أجعل هذه العجالة بمثابة رد على آرائه وآراء مريديه إلى جانب كونها إلمامة عامة بآرائي الدينية وتبيانًا صريحًا لأسباب إيماني.

ولا بد لي أولاً من أن أشكر لصديقي الكاتب الحر رئيس تحرير (الإمام) رعايته لحرية الفكر ولو جاء ما ينشره ضد آرائه وآراء خاصة أصدقائه، وهذا غير عجيب من مثل السحرتي في نبالة طباعه وثقافته، كما لا بد لي ثانيًا من أن أشكر للدكتور أدهم صراحته في النقد بالرغم من مودته لي التي تجلت غير مرة في كتابته الأدبية عني.

وأحب أن أصارح ناقدي بأن سخطه على بعض شيوخ الإسلام هو على ما يظهر سبب من أسباب حملته على الإسلام نفسه، مع أن الإسلام مستقل في جوهره ونقائه عن تصرفات شيوخه. لا أقول ذلك بالنسبة لرسالته الأخيرة التي تعد من قبيل الفلسفة الرياضية، ولكن بالنسبة لمجموع كتاباته السابقة ومن بينها نقده لمؤلفي (رسالة محمد).

وإني أريد في هذه العجالة أن أتعرض لتلك النقاط المختلفة تصفية لهذا الموضوع وإنصافًا للإسلام الذي لا يرضيني أن تغمط مزاياه من أجل تصرفات شيوخه الشخصية.

[مزايا الإسلام]

للإسلام ثلاث مزايا عظيمة من سكت عن ضياعها فقد عاون على ضياع الإسلام نفسه:



(١) وراثتـه لحسـنات الديانات السـابقة وقيامـه على العقل والعلم.

(٢) ديمقراطيته المتناهية.

(٣) تخليه عن نظام الكهنوت والقساوسة.

وقد أوجب الإسـلام على كل مسلم أن يبشر بهذه الحقائق، لا فارق فى ذلك بين حاكم ومحكوم، ولا بين موظف وغير موظف، ولا بين شعب وآخر من الشعوب الإسلامية. ولهذا دفعنى ضميرى إلى إنشـاء هذه السلسـلة من البحوث الإسـلامية الحـرة لأن هذه فريضـة دينية فى اعتقـادى، واجبها يلزم كاتبًـا مثلى حمل القلم أكثـر من ثلاثين عامًا حينما كان كثيرون من الشـيوخ المعروفين الآن فى حكم النكرات. وهو واجب أقدمه محبة لله سبحانه وتعالى وأنا فى الحلقة الخامسة من عمرى.

أما هذه البحوث التى أصدرتها حتى الآن فهى: (١) مذهبى - وهـو مجمل مذهبى الدينى الذى أدعو إليه فى حدود العقل والعلم والتصـوف الإسـلامى، (٢) عقيدة الألوهـة - وهو بحث منطقى لإثبـات الألوهة وتعليـل الإيمان بهـا تعليلاً سـيكلوجيًا علميًا، (٣) رسـالة محمـد - وهو شـرح للـروح الإنسـانية العالية التى بشـر بها نبى الإسلام (ﷺ) وكانت أعظم مقومات دينه الحنيف، (٤) المـال فى الإسـلام - وهو بيان لديمقراطية الإسـلام المالية التى اسـتوحاها المصلحـون فى الغرب وبنوا عليها آمال السـلام العالمى، (٥) حقوق الإنسان - وهو عرض لما كسبته الإنسانية مـن الثورات المصلحة ورعاية الإسـلام لهذه الحقوق، (٦) لماذا أنـا مؤمن ؟- وهو هـذا الرد علـى مذهب ارتباط الإلحـاد بقانون الاحتمـال، والتعريف باسـتقلال الإسـلام فى جوهـره ونقائه عن تصرفات شيوخه.

وإنـه لممـا يحزن حقًا أن تدفع العنجهية أو الأنانية كثيرين من

شيوخ الإسلام إلى العديد من التصرفات القاضية على هذه المزايا العظيمة، وأن يجاريهم فى ذلك بحكم مراكزهم بعض من أحسنا الظن بهم من رجالات الإسلام.

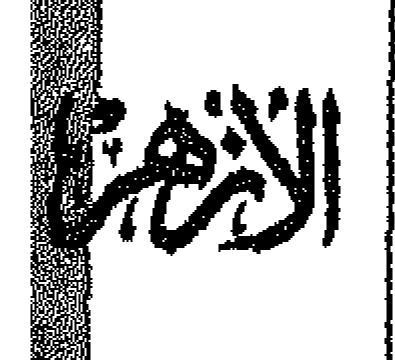
فأما عن وراثة الإسلام لحسنات الديانات السابقة وقيامه على العقل والعلم فقد تجلّيا فى أنضر عصوره بمظهر التسامى الفكرى وتقدير الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء أيًا كانت عقائدهم وآراؤهم واجتهادهم وبانتفاء التعصب الدينى. وقد انقسم المسلمون إلى نقليين puritans وعقليين Rationalists، وساير الأخيرون الحضارة وحملوا راية الثقافة وطعموا الإسلام بالعلم والفلسفة، ونبغ من بينهم أعظم رجال الاجتهاد. وعلى قدر ذلك التسامح وحرية الفكر والاجتهاد كانت تنمو عظمة الإسلام الروحية والفكرية بل والمادية أيضًا (٦٢).

[عقيدة الألوهة]

يوحى علم مقارنة الأديان بأن الإيمان بالآلهة أو بالله مرجعه فى كثير من الأحوال إلى الوراثة الإنسانية فى قرون مديدة من الإنسان البدائى الذى كان يرهب الطبيعة أشد الرهبة لجهله بقوانينها ونواميسها. وقد تدبرت ذلك طويلاً، كما درست نظريات وتجاريب شتى لطائفة من رجال الفلسفة والتاريخ والدين والعلم فانتهيت إلى نظريتى التى حبذها الدكتور ريتشارد بل Richard Bell الأستاذ بجامعة إدنبرة، ألا وهى أن الإحساس بالألوهة إحساس فطرى شبه غريزى، وهو انجذاب الجزء نحو الكل، وقد أشار الدكتور أدهم نفسه إلى ذلك فى دراسته

---

(٦٢) حذفنا بقية التوطئة لعدم تعلقها بالموضوع، إذ هى نقد لشيوخ الأزهر وإمامه الشيخ المراغى ودفاع حماسى عن خلاف حزب الوفد ورئيسه «مصطفى النحاس باشا» مع الأزهر حول رغبة الأزهر فى إلقاء مسحة إسلامية على حفل تولى الملك فاروق العرش.



الإنجليزية عنى وفى سواها من كتاباته النقدية .

وهذا الإحساس له قوام علمى من حيث إننا ذرات كهربائية فى كون مكهرب من أوله إلى آخره ، فالتجاوب بين أجزائه مستمر بصور شتى ، ولكن يشملها جميعًا شعور التوحد ، وهذا الشعور الصوفى هو أساس «عقيدة الألوهة» .

وليس لنا أن نجارى العامة أو جمهرة الناس فى أوهامهم فى تصور الله سبحانه وتعالى ، فإن العلم وحده هو الذى يهدى الوجدان فى ذلك . والإسلام فى أسمى معانيه لا يقوم إلا على العقل والعلم ، فمحال إذن فهم معنى الألوهة عن طريق الجهل والخرافات ، والمقصود بالفهم تفسير شعورنا الوجدانى السالف الذكر .

لنأخذ على سبيل المثال ما يتعلمه التلاميذ فى المدارس ، فقد قرأت لمؤلفين فاضلين هذه السطور : «إذا نظرنا إلى الملابس التى نلبسها والمساكن التى نسكنها وجميع الأدوات التى نستعملها وجدنا أن لها صناعًا صنعوها على الأشكال التى نراها بها . كذلك السموات والأرض والكواكب والأنهار والهواء والماء وجميع المخلوقات لم توجد بطبيعتها ، بل لا بد لها من موجد أوجدها وجعلها بهذا النظام البديع ، وصانعها لا بد أن يكون قادرًا ، هو الله سبحانه وتعالى» (٦٣) .

وهذا تعريف تقليدى خاطئ يرجع إلى التفسير الحرفى بدل التفسير الرمزى للآيات القرآنية الشريفة ، فالثابت علميًا أن العالم كائن دورى وأنه أزلى فى مادته لا فى صوره ، وليس ثمة شىء كائن من العدم . ولا يليق بقدر الله سبحانه وتعالى أن يقال عنه جل شأنه ما يشعر أنه أخذ يفكر ثم خلق العالم من لا شىء ، إذ معنى

(٦٣) كتاب التعليم الدينى للأطفال «حسن توفيق وعطية محمد» جـ ٣ ص ٤.

هذا أنه مضى عليه وقت كان وحيدًا مترددًا فى خلق العالم حسب تصور إخواننا النقليين. والأليق من كل هذا أن نلجأ إلى التفسير العلمى للألوهة، وقد تقدمت بتفسير لقى ارتياحًا عند كثيرين من المفكرين، وهو فى الوقت الذى يتمشى مع أزلية الكون يحتضن الآية الكريمة:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾

(النور: ٣٥).

والآية الشريفة:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾

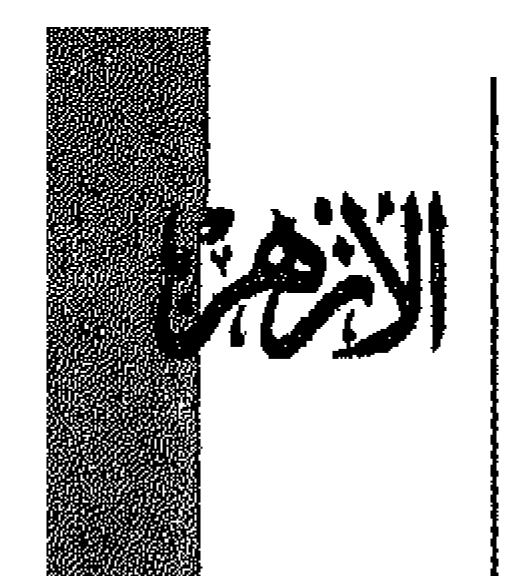
(البقرة: ١١٥).

ولو أن ناشئتنا لُقنوا أنه لا يوجد أمامهم أى شىء يستطيع الاستقلال التام بذاته، وأننا جميعًا أجزاء من شىء أكبر، وأن مجموع الوجود هو الرمز المشهود للألوهة المنظمة الحكيمة حسب سنن دقيقة خالدة، وأننا بفطرتنا نشعر بالحنين والابتهال إليها لاطمئناننا إلى العدل الإلهى الدائم سواء أكان سريعًا أم بطيئًا، مباشرًا أم غير مباشر، وأننا ذرات كهربائية صغيرة من هذه الكهربائية العظمى المسيطرة، لفهموا ماديًا، وبأسلوب صادق معنى الألوهة بما يتفق وروح الإسلام المتجلية فى مثل هاتين الآيتين الشريفتين، بدل التعلق بمعان آدمية تعالى الله عنها.

[قانون الاحتمال والإلحاد]

وليس بعيدًا أن الدكتور أدهم يشعر فى ذاته بهذا الشعور، ولكنه يدع هذا جانبًا ويتشبث بنقض الأوهام الشائعة وإزاءها يؤثر أن يسمى نفسه ملحدًا على أن يكون مؤمنًا غير معقول ولا عاقل!

وقد تناول هذا الموضوع تناولاً طريفًا فلجأ إلى الرياضيات واتخذ من قانون الاحتمال سندًا له إذ قال:



«إن العالم الخارجى - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال probability فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث. والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض. وقد نجحنا فى ساحة الفيزيقا- الطبيعيات - فى أن نثبت أن (B) إذا كانت نتيجة effect للسبب (A) cause فإن معنى ذلك أن هنالك علاقة بين الحادثتين (B) و (A). ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (B) و (C) وبينها وبين (D) و(E) فكأنه يحتمل أن تكون (B) نتيجة للحادثة (A) وقتًا وللحادثة (C) وقتًا آخر، وللحادثة (D) حينًا وللحادثة (E) حينًا آخر. والذى نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التى هى أساس الفكر العلمى الحديث. ونحن نعرف أن قرارة النظر الفيزيقى الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة، وليس لى أن أطيل فى هذه النقطة وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتى العلمية لمعهد الطبيعيات الألمانى والمرسلة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ والتى تليت فى اجتماع ١٧ سبتمبر ونشرت فى أعمال المعهد لشهر أكتوبر عن «المادة وبنائها الكهربائى». وقد لخصت جانبًا من مقدمتها بجريدة (البصير) عدد ١٢١٢٠ (المؤرَّخ الأربعاء ٢١ يوليو سنة ١٩٣٧م)، وفى هذه المذكرة أثبت أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة، فإذا كان كل ما فى العالم. يخضع لقانون الاحتمال فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه : « science et Methode » فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف :

« إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب » .

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده (انظر لصديقنا البحاثة إسماعيل مظهر « ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء » ، ص ١٦٤ - ١٦٧) منذ تفتح العقل الإنسانى ، غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقًا بُث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى Mathematik und physik ج٢ ، فصل ٧ ، فى صدد الكلام عن الصدفة والتصادف . وهذا المعنى لا تأتينى الألفاظ العادية للتعبير عنه لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السبب والنتيجة ، ولهذا سنحاول أن نحدد المعنى عن طريق ضرب الأمثلة .

لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة ، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه ، فلنرمز لكل وجه بالرمز الآتى فى كل من الزهرين :

يك : دو : ثه : جهار : بنج : شيش

ل١ : ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ فى زهر النرد الأول

ك١ : ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ فى زهر النرد الثاني

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد ، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها .

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر



النرد، ولكن لنا أن نتساءل: ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط؟ فمثلاً لو فرضنا أنه في المرة إن كانت نتيحة اللعب هي:

ل٦ × ك٦ = شيش × شيش = دش

فما أوجه مجيء الدش في المرة (ن + س)؟

إذا فرضنا أن الحالة الاحتمالية هي «ح» كان لنا أن نخلص من ذلك بأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن + س) من المرات وكان مجموعها مثلاً ٣٦ مرة فاحتمال مجيء الدش هنا في الواقع: ١ / (ن + س)

وبما أن ن + س = ٣٦ مرة فكأن النسبة الاحتمالية هي ١ / ٣٦، فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة ما عُد ذلك غريبًا لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لا بد من مجيئه لأن هذا يدخل في باب آخر قد يكون باب الرجم. وكلما عظم مقدار (س) في المعادلة (ن + س) تحدد مقدار (ح) أي النسبة الاحتمالية، وذلك خضوعًا لقانون الأعداد العظمى في حسابات الاحتمال. ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسري في المقادير الكبيرة، مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥٪ أعني أن ٩٥ حالة تنجح من ١٠٠ حالة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لإجراء هذه العملية فإن الجراح يكون مطمئنًا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه الحالات بنجاح، فإذا سألته: يا دكتور، ما نسبة احتمال النجاح في هذه العمليات؟ فإنه يجيبك ٩٥ في المائة، ويكون مطمئنًا لجوابه، ولكنك إذا سألته: يا دكتور، ما نسبة احتمال النجاح في العملية التي ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت ولا يجيبك؛ لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هـذا المثـال يوضح معنى قانـون الصدفة فـى أنها تتصل بالمقاديـر الكبيـرة والكثـرة العديدة . ويكون مفهوم سـنة الصدفـة وجـه الاحتمـال فـى الحـدوث ، ويكـون السـبب والنتيجـة - مـن حيث همـا مظهـران للصلة بيـن حادثتين فـى النطاق الخاضـع لقانون العدد الأعظـم الصدفى - حالة إمكان محض . ومعنى هذا أن السببية صلة إمكانٍ بين شيئين يخضعـان لقانون العدد الأعظم الصدفى ، فمثلاً لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعنى بنسـبة ١ : ٣٦ مرة ، ففـى الواقع نحن نكون قد كشـفنا عن صلـة إمكان بين زهر النـرد ومجـىء الدش ، وهذا قانـون لا يختلف عـن القوانين الطبيعية فى شيء .

إذًا يمكننـا أن نقول إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددهـا الأعظم تعطـى حالات إمـكان . ولمـا كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم . . . وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها قانـون العدد الأعظم الصدفى ، ومثل العالـم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحركـة والأصطدام فتجتمع وتنتظم ثـم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية ، فلا شـك أنه فى دورة من هذه الـدورات اللانهائية لا بد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن ، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفـات التى وضعت سـتأخذ دورها فـى الظهور خاضعة لحـالات احتمال وإمـكان فى اللانهائية ، فـإذا اعتبرنا (ح)



رمزًا لحالة الاحتمال و(ص) رمــزًا للانهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات (٦٤) :ح = ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة.

يقــول ألبرت أينشــتين صاحب نظرية النســبية في بحث قديم له :

(مثلنــا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شــيئًا، فلمــا أخذ فى مطالعتــه وتدرج من ذلك لدرســه وبان له ما فيه من أوجه التناســق الفكرى شــعر بــأن وراء كلمات الكتاب شــيئًا غامضًا لا يصل إلى كنهه، هذا الشيء الغامض الــذى عجز عن الوصــول إليه هو عقل مؤلفه، فــإذا ما ترقى بــه التفكير عرف أن هــذه الآثار نتيجة لعقل إنســان عبقرى أبدعه.

كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضًا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشيء هو «الله») .

ويقول السير جيمس جينز الفلكى الإنجليزى الشهير :

(إن صيغــة المعادلــة التى توحــد الكون هــى الحد الذى تشــترك فيــه كل الموجــودات. ولمــا كانــت الرياضيــات منســجمة مــع طبيعــة الكــون كانــت لبابــه. ولمــا كانــت الرياضيات تفســر تصرفــات الحوادث التى تقــع فى الكون وتربطها فى وحدة عقلية فهذا التفســير والربط لا يحمل إلا على أن طبيعة الأشــياء رياضية، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحــث عن عقل رياضــى يتقن لغة الرياضــة يرجع له هذا

(٦٤) يريد الناقد بهذه المعادلة أن ظهور الحالات فى اللانهائية يحدده الاحتمال فى اللانهائية ذاتها.

الكون، هـذا العقل الرياضي الذى نلمس آثاره فى الكون هو «الله»).

وأنت تـرى أن كليهما (والأول من أسـاطين الرياضيات فـى العالـم والثانـى فلكي ورياضـى من القـدر الأول) عجز عـن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشـاملة والتى يتبع دستورها العالم، لا لشيء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما.

الواقع أن أينشـتين فى مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه - مؤلفه - والواقع أن هذا احتمال محض لأنـه يصح أن يكون خاضعًا لحالة أخرى ونتيجة لغيـر العقل، ومثلنا عن المطبعـة وحروفها وإمكان خـروج الكتب خضوعًا لقانون الصدفة الشـامل يوضح هذه الحالة. أما ما يقول السـير جيمـس جينز فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعة الأشـياء لأن نجـاح الوجهة الرياضية فـى ربـط الحـوادث وتفسـير تصرفاتهـا لا يحمـل على أن طبيعة الأشـياء رياضية بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشـياء، فالأشـياء هى الكائن الواقع والرياضيـات ربـط ما هـو واقع فـى نظام ذهنى علـى قاعدة العلاقـة والوحدة، وبعبارة أخـرى أن الرياضيات نظام ما هو ممكـن والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضـمنه الممكن، ولذلـك فالواقـع حالـة خصوصية منـه، ومن هنـا يتضح أنه لا غرابـة فى انطبـاق الرياضيـات على الكون الـذى نألفه، بـل كل الغرابة فى عـدم انطباقها، لأن لكل كـون رياضياته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شـرط ضرورى لاعتباره كونًا، من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس



الناحية الرياضية فى العالم، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم، وهذا خطأ لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعًا لنظام ما هو ممكن فهو حالة احتمال من عدة حالات والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل(٦٥) .

إن الصعوبة التى أرى الكثيرين يواجهوننى بها حينما أدعوهم إلى النظر للعالم مستقلًا عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعًا لقانون الصدفة الشامل ترد إلى قسمين : الأول : لأن مفهوم هذا الكلام رياضى صرف ومن الصعب التعبير عنه فى غير أسلوبه الرياضى، وليس كل إنسان رياضى عنده القدرة على السير فى البرهان الرياضى .

الثانى : أن الاحتمالات تعطى العالم مفهومًا جديدًا وتجعلنا ننظر إليه نظرة جديدة غير التى ألفناها، ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها لأن التغير الحادث أساسى يتناول أسس التصور نفسه .

ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة ومانعة الكثيرين الإيمان بها .

أما أنا شخصيًا فلا أجد هذه الصعوبات إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدا من الثبات على عقيدتى العلمية والدعوة إلى نظريتى القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله .

ومع أنى اقتبست اقتباسًا وافيًا من ملاحظات الدكتور أدهم من باب الإنصاف له، فإنى لا أرى أن نقضها من

---

٦٥) يريد الناقد بالسبب الأول الشامل المطلق **Absolute** أى (الله).

الوجهة الإنسانية يحتاج إلى بيان طويل، إذ بديهى أن قانونِ الاحتمال إذا طبق تطبيقًا لا نهائيًا فإنه لا يعدو حد النظريات المسرفة، إذ إن تنضيد القرآن الكريم من تلقاء ذاته كما يقول حضرة ناقدى أمر نظرى محض هو فى حكم المستحيل عمليًا بالنسبة للإنسان لأنه مما يدخل فى حسابات البلايين البعيدة التحقق: مثال ذلك أن العالم متناه فى حساب أينشتين، ولكنه عمليًا غير متناه لاستحالة الإلمام الإنسانى به حسيًا، وكذلك الافتراض الذى يفترضه حضرته لا يذهب بمنزلة القرآن الكريم ولا بأى كتاب مقدس، إذ من السهل أن يجيبه أى مسلم بأن قانون الاحتمال فى ذاته هو من السنن الإلهية، فلو نشأ القرآن الكريم أو الكتاب المقدس بموجب هذا القانون لما تعدى أن يكون وحيًا إلهيًا بوسيلة طبيعية. وليس لسيطرة قانون الاحتمال على العالم ما يعنى وجود الفوضى فيه، إذ إن اتساع تطبيقه اتساعًا هائلًا يؤدى حتما إلى نظم معينة، وهو المشهود عمليًا فى الوجود كما يثبت علم الفلك ذلك. ثم إن قانون الاحتمال يحتاج فى تطبيقه إلى عوامل وهذا ما أغفله الدكتور أدهم، فظهور القرآن الكريم فى تواريخ معينة، ولأسباب معينة، وفى صور عقلية معينة، عوامل تؤثر فى قانون الاحتمال ولا تتأثر به، بمعنى أنها ترضخه أو تتفاداه فى الزمن والتكييف، مع أنه لو كان جاريًا نظريًا على حسب رأى حضرته لجاز أن لا يظهر الكتاب الشريف إلا بعد ملايين السنين المقبلة، وكل نظرى محض قائم على فروض حسابية لا تقع عمليًا هو فى حكم اللغو أو السفسطة المنطقية بالنسبة للإنسان ولو كان صوابًا من الوجهة الرياضية الكونية، إذ إنه محال فى عالم الواقع المحسوس بالنسبة للكرة الأرضية، وهذا ما يخص الدين،



وعلى هذا نرى أن الدكتور أدهم لم ينقض بذكائه وتخيله ومعارفه الرياضية شيئًا من عقيدة الألوهة كما لم يمس الإسلام ذاته كدين إنسانى لهداية البشر وتنظيم حياتهم.

الخلاصة

يبني الدكتور أدهم إلحاده المزعوم على أن قانون الاحتمال هو السائد فى الكون، وإذن فكل أثر فيه - حتى القرآن الكريم - عرضة لأن يكون أثرًا من آثار هذا القانون العام، وبهذا تنتفى قدسيته كما ينتفى وجود قوة مدبرة حكيمة هى قوة الألوهة، وهذه جراءة في استغلال قانون الاحتمال يتهيبها أخبر الناس به دون استثناء شركات التأمين!

ورأيي أولًا أن عقيدة الألوهة قائمة على الإحساس الجذبى من الجزء نحو الكل، فهى ذات أساس علمى صادق، كما أنها فى حكم الغريزة النفسية، وأعتقد أن الدكتور أدهم نفسه راضخ لهذا الإحساس وإن لم تعجبه تفاسير عامة الناس للألوهة فإنى لم أر فى حياتى ملحدًا بالمعنى الشائع، وحتى من يدعون ذلك نجد أن لهم إيمانهم الخاص.

أما قانون الاحتمال فهو عندما يتناول الملايين والبلايين وما هو فى حكم اللانهائى تصبح نظرياته لغوًا عمليًا بالنسبة لعمر الإنسانية. مثال ذلك أن الكون محدود حسب تقدير أينشتين، ولكنه غير محدود من الوجهة العملية لاستحالة إحاطة الإنسان به حسيًا. وكذلك القرآن الكريم أو الكتاب المقدس أو غيرهما من الأسفار الدينية الخالدة، فإنه من الوجهة العملية لا يمكن أن يخرج من تلقاء ذاته بدون تفكير عظيم، وعلى هذا لا ينقض الحساب الرياضى (الذى أشار إليه الدكتور أدهم) مكانته. يُضاف إلى هذا أن قانون الاحتمال فى ذاته هو من النواميس الطبيعية التى

لهـا مكانتهـا فى تكييف الوجـود تكييفًا منظمًـا لا تكييفًا قائمًـا علـى الفوضـى ، والدليل علـى ذلك النتائـج العملية المشـهودة والمراقبة فلكيًا : وبعبارة أخرى إن اتسـاع مدى قانـون الاحتمـال يعطيه تنظيمًـا هو الملحـوظ فى تكييف العالـم (راجـع كتـاب جوليـان كوليـدج Introduction to Mathematical Probabiliy. By Julian L. Coolidge).

وعلـى هذا لا محـل لتوهـم الفوضى التـى تجعلنا نصغر عقيـدة الألوهة وكل ما يمت إليها بسـبب ، ومن الواجب أن نتذكـر أن حقائق الاحتمـال الرياضى اللانهائـى هى صادقة نظريًا بالنسـبة للكون لا بالنسـبة للإنسـان ذاته أو بالنسبة للإنسـانية جمعاء فـى عمرها المحـدود أو بالنسـبة للكرة الأرضية ، وهذا وحده ما يهم الأديان البشـرية التى تتمسـك بالإنسـانيات العمليـة وحدهـا . وبنـاء على هذا فـإن مقال الدكتـور أدهم عن الإلحـاد وعقيدة الألوهة لـم يزد مثلى إلا تمسكا بإيمانه .

«٤»

لماذا هو ملحد؟ (٦٦)

للعلامة محمد فريد وجدى

(٦٦) مجلة الأزهر المجلد الثامن رجب ١٣٥٦هـ سبتمبر ١٩٣٧م.

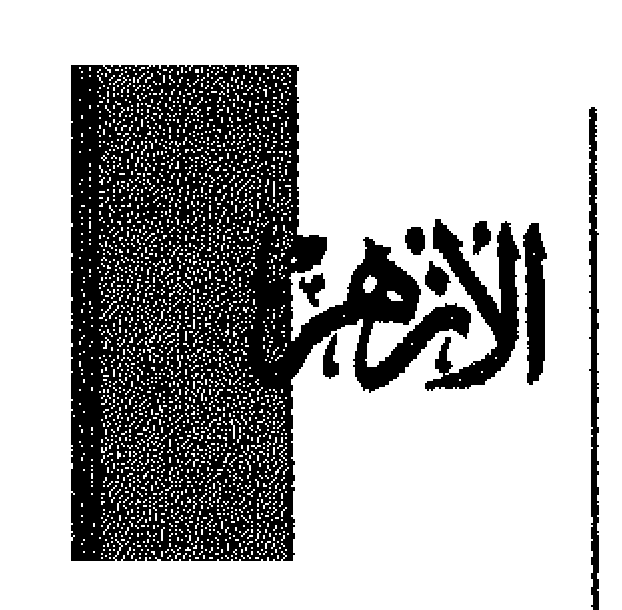
إن انتشار العلوم الطبيعية، وما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى، استدعت أن يتناول بعضهم البحث فى العقائد، فنشأت معارك قلمية بين المثبتين والنافين تمحصت بسببها حقائق، وتبينت طرائق، وآمن من آمن عن بينة، وألحد من ألحد على عهدته.

ونحن الآن فى مصر، وفى بحبوحة الحكم الدستورى، نسلك من عالم الكتابة والتفكير هذا المنهاج نفسه، فلا نضيقن به ذرعًا ما دمنا نعتقد أننا على الحق المبين، وأن الدليل معنا فى كل مجال نجول فيه، وإن هذا التسامح الذى يدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر، هو فى الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله، فقد كان يجتمع المتباحثون فى مجلس واحد بين سنى ومعتزلى ومشبه ودهرى.. إلخ، فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس، وعظمة فى القلوب، وكرامة فى التاريخ.

هذه مقدمة نسوقها بين يدى نقد نشرع فيه لرسالة ترامت إلينا بعنوان: (لماذا أنا ملحد)، نشرها حضرة الدكتور إسماعيل أحمد أدهم فى مجلة الإمام الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٣٧، ثم أفردها فى كراسة تعميمًا للدعوة.

بدأ الدكتور رسالته بقوله: إنه ابن ضابط تركى محافظ على دينه وأمه مسيحية هى بنت البروفسور وانتهوف المشهور، ولما كان أبوه لاشتغاله بالحروب لم يتفرغ لتربيته، كلف زوج عمته أن يهيمن على تثقيفه، فقام بذلك على أسلوبه، حتى اضطره لحفظ القرآن.

قال الكاتب فى هذا الموطن: (غير أنى خرجت ساخطًا على القرآن لأنه كلفنى جهدًا كبيرًا كنت فى حاجة إلى صرفه إلى ما



هو أحب إلى نفسي منه، وكان كل ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه، ولكني كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانت شقيقتاى - وقد نالتا قسطا كبيرًا من التعليم فى كلية الأمريكان بالآستانة - لا تثقلان عليَّ بالتعليم الديني المسيحي، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحًا، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر فى نفسيتي).

وبين سنة ١٩١٩ و١٩٢٣ قرأ الدكتور كتاب دارون وخرج منه مؤمنًا بالتطور، ونزح والده إلى الإسكندرية وأخذ يتولى ابنه بالعناية، ويفرض عليه الإسلام والصلاة، قال الدكتور: (إني ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة، وقلت له إني لست بمؤمن، أنا داروني أومن بالنشوء والارتقاء، فكان جوابه على ذلك أن أرسلني إلى القاهرة، وألحقني فيها بمدرسة داخلية ليقطع عليَّ أسباب المطالعة)، كل هذا ولم تتجاوز سنه الرابعة عشرة.

وفى سنة ١٩٢٧ غادر مصر وشخص إلى تركيا والتحق بجامعتها، فدرس الرياضيات، وأسس مع بعض إخوانه جماعة لنشر الإلحاد، فكانوا يصدرون نشرات فى كل منها ٦٤ صفحة.

ثم التحق بجامعة موسكو وحصل منها على شهادة الدكتوراه فى الرياضيات، ثم حصل على دكتوراه فى العلوم والفلسفة، قال: (وكانت نتيجة هذه الحياة أني خرجت عن الأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده، وبالمنطق العلمي، وأشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالاً، وأكثر اطمئنانًا، من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني).

الدخول إلى موضوع البحث:

قال الدكتور فى رسالته: (إن الأسباب التى دفعتني للتخلي عن الإيمان بالله كثيرة، منها ما هو علمي بحت، ومنها ما هو فلسفي

صرف، ومنها ما هو بين بين، ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية).

(وقبل أن أعرض للأسباب لابد لى من استطراد لموضوع إلحادى، فأنا ملحد ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه.

نعم لقد كان إلحادى بداءة ذى بدء مجرد فكرة تساورنى، ومع الزمن خضعت لها مشاعرى فاستولت عليها، وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة، ولى أن أتساءل: ما معنى الإلحاد)؟ (يجيبك لودفيج بخنر، زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر: (الإلحاد هو الجحود بالله وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة)، والواقع أن هذا التعريف سلبى محض، ومن هنا لا أجد بدًا من رفضه، والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى كملحد هو: (الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته، وأن ثمة لا شىء وراء هذا العالم).

(ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابى محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلاً على عدم وجود الله، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما فى تعريف بخنر من معان)، انتهى.

نقول: إن قوله إن الأسباب التى دفعته للتخلى عن الإيمان منها ما هو علمى ومنها ما هو فلسفى، قول لا نراه وجيهًا، فقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفى الصانع. وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات، والحكم بوجود شىء أو نفيه مما وراءها إلا إذا كان له فى تلك المحسوسات أثر يستهدى به.

والمعركة القائمة بين العلماء المثبتين للصانع والنافين له، تنحصر فى أن الأولين يحتجون بوجود هذا الإبداع التكوينى والاستدلال به على وجود القدرة المبدعة، وأن الآخرين يدعون



بأن هذا الإبداع سببه وجود نواميس طبيعية منتظمة ملازمة للمادة تكفى لإيصال الكائنات فى آماد طويلة إلى هذه الدرجة العالية من الإبداع، دون الحاجة إلى عقل مدبر سواها، وهذا كما لا يخفى موقف سلبى واهن يحتاج الآخذ به للاعتماد على تحكمات افتراضية ليست من العلم فى شيء.

وأما الفلسفة وهى تناول الأمور بالنظر والتفكير، فهى كما تكون سببا فى الإلحاد تكون سببا فى الإيمان، ناهيك أن أعلام الفلاسفة أكثرهم مؤمنون.

أما ما هو بين بين فيظهر أنه يريد به الخلط بين العلم والفلسفة، كما يفعل أصحاب الفلسفة الطبيعية، وهى لا تصلح أن تكون مصدرا للإيمان إلحادى، لأن العلم الذى يستندون إليه لا يزال فى دور التكمل، فقد كانوا يقولون بوجود جواهر فردة مادية (٦٧)، واليوم ثبت أن المادة تنتهى لقوة، وكانوا يدعون أن الحواس هى أصدق المصادر للعلم، وقد ثبت أنها لا تكفى لبنائه على أساس متين، وقد كانوا يقولون بأن أساس الكائنات عناصر أربعة هى الماء والتراب والهواء والنار، ففوجئوا قبل نحو مائة وخمسين سنة بأن هذه الكائنات ليست بسيطة ولكنها مركبة، وأن العناصر التى آلت إليها ربما كانت مركبة هى أيضًا من عناصر أبسط منها.

وكانوا لا يتخيلون وجود أشعة غير ما تتأثر به العين، فإذا بهم حيال أشعة تخترق الأجسام الصلبة، وتعمل فى الأجسام عمل

---

(٦٧) الجوهر الفرد: هو الجوهر الأول، أى الكائن الفرد المتعين. وهناك الجواهر الثوانى، وهى الكليات التى يحمل عليها غيرها، مثل الإنسان والحيوان، وليست جوهريتها حقيقية، وإنما جاءت من ناحية أنه يحمل عليها غيرها. ولا يطلق مصطلح الجوهر الفرد على الذات الإلهية، لأنها الجوهر الحق ونظرية الجوهرية تقابلها نظرية الظاهرية التى لا تسلم إلا بالظاهرات وحدها.

المواد الشديدة التأثير، حتى إن أشعة الراديوم قتلت مكتشفها الأستاذ (كوري) الفرنسي (٦٨)، وقتلت غيره من الباحثين فيها، وأحرقت وجوه وصدور عدد كبير منهم.

بقي ما عبر عنه الكاتب بأحوال البيئة والظروف، وبأسباب سيكولوجية، وهذه في نظرنا هي الأسباب الحقيقية في تكوين فكرة الإلحاد عنده، فإنه ذكر في تاريخ حياته أن أباه كان مسلمًا محافظًا، وأن أختيه كانتا تلقنانه الدين المسيحي، وفي الوقت نفسه كانتا تهزآن بخوارق الكتب المسيحية، وبخلود الروح في الحياة الآخرة، وأن زوج عمته كان يرغمه على الصلاة وحفظ القرآن، فهذه كلها عوامل تقذف بنفسية الطفل من الشذوذ إلى مكان بعيد.

ولا عجب لنفس يحكم عليها أن تكون في وسط هذا التناقض ولا تشعر بانقباض شديد يحملها على طلب المخرج منه، فلما أتته نظرية الإلحاد وجد فيها الراحة التامة لضميره، والثلج الكلي لصدره، فأخذ بها وتحمس لها.

لقد عاب الدكتور علي بوخنر تعريفه للإلحاد، وجاءه بتعريف له أكمل منه، فقال: إن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن ليس ثمة شيء وراء هذا العالم.

وهذا التعريف معلول لا يصح في عرف العلم ولا في عرف أية فلسفة في الأرض، بخاصة لأهل هذا العصر، وإليك البيان:

إن القول بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، لا يمكن أن يعدو كونه رأيا، ولما كان الدكتور يكلمنا وهو في مجال العلم، فإنا نسأله كيف يمكن في عرف العلم أن يولد الرأي إيمانًا راسخا

---

(٦٨) كوري - بيير (١٨٥٩ - ١٩٠٦م) كيماوي وفيزيقي فرنسي، ولد ببولندا، واهتم بعلم البلورات وبتأثير درجة الحرارة على المغنطيسية. واكتشف - مع زوجته ماري (١٨٦٧ - ١٩٤٣م) - البولوتونيوم والراديوم عام ١٨٩٨م.



لا يقبل المناقشة ؟

نعم إن المشاهد أن كل ظاهرة طبيعية ، تحدثها علة طبيعية ، ومن هنا يتخيل من يبحث بحثًا سطحيًا فى علل الوجود أن علله ذاتية فيه ، ولكن العقول اجتازت هذه العقبة فرأت أن هذه العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة إلا إذا كانت كلها متنزلة من علة رئيسية ، تصدر عن تدبير سابق للحوادث .

قال العلامة السير وليم كروكس (٦٩) وهو من أقطاب العلم العصرى وقد تولى رياسة المجمع العلمى البريطانى ، قال فى خطبة له (٧٠) :

(الكون كله على ما ندركه نتيجة الحركات الذرية ، وهذه الحركات تنطبق كل الانطباق على ناموس حفظ القوة ، ولكن ما نسميه ناموسًا طبيعيًا هو فى الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه بشكل من أشكال القوة ، ونحن نستطيع أن نعلل الحركات الذرية ، كما نعلل حركات الأجرام الجسمية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكنا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه إلى حل أهم مسألة وهى : أى نوع من أنواع الإرادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية ، مجبرا لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل (تأمل) ، وما هى العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفى الأصل من وراء ستار المسرح) ، وأى ازدواج من الإرادة والفكر (تأمل) يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى

---

(٦٩) وليم كروكس (١٨٣٢ - ١٩١٩م) كيماوى وفيزيقى إنجليزى. اكتشف عنصر الثاليوم، ودرس النشاط الإشعاعى والسيلينيوم والثروات النادرة والماس. واخترع أنبوبة كروكس عالية التفريغ.

(٧٠) راجع مجموعة خطب السير «وليم كروكس» ص ٣٦.

الذى نعيش فيه .

(فاسمحوا لى أن أستنتج من هذا الفهم أنه يستحيل علينا أن نتخيل مقدما الأسرار التى يحتويها الكون ، والعوامل الدائبة على العمل فيما حولنا) انتهى .

هذا رأى العلامة الكيماوى والرياضى الكبير (وليم كروكس) ، وهو من الرجال القلائل الذين تضطرهم تجاربهم أن يطلعوا على عمل النواميس كل يوم ، فهم أقرب إليها ممن عداهم ممن يكتبون ولا يعملون ، وقد رأيت أنه يأبى أن يسلم بكفاية النواميس لإيجاد الكون وحفظه على ما هو عليه ، فأظهر الحيرة فى فهم كنه تلك (الإرادة) وذلك (الفكر) الذى يعمل من ورائها .

وهو ليس يقول هذا القول متابعة لوهم أو وراثة دينية عنده ، ولكن تجاربه اضطرته إليه ، فقد نص على ذلك نصًا فى خطبة له فى المجمع العلمى البريطانى ، جاء فى صفحة ٨ من مجموع خطبه :

(متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد هذه النتائج أو النواميس كما نسميها- محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم ، أما أنا فإن تركى لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حدًا بعيدًا فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك) .

إذا كان هذا حال أقطاب العلم من الحيرة إزاء علل حدوث الكائنات ، فمن أى الآفاق يتنزل (الإيمان بالإلحاد) ، الذى يذكره الدكتور صاحب الرسالة على قلب باحث فيه ، لا نشك فى أنه يتسرب إليه من ناحية السذاجة العلمية ، وقد نص على هذه الحقيقة الرياضى المشهور (هنرى بوانكاريه) الذى يعتقد فيه حضرة الكاتب الإمامة فى العلم ، قال فى كتاب العلم والافتراض





صفحة(١) : .

(الحقيقة العلمية فى نظر المشاهد السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك ، وعنده أن المنطق العلمى غير قابل للنقض ، وأن العلماء وإن أخطأوا أحيانًا فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده ، والحقائق الرياضية فى نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ ، وهى واجبة ، فى رأيه ، ليس علينا فقط ولكن على الطبيعة أيضًا (تأمل) .

ثم قال : (هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة ، وها هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضًا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

(ولكن لما تروى العلماء قليلاً لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حينذاك سأل بعضهم بعضًا هل كانت هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ، وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها ، فمن ألحد على هذا الوجه (تأمل) صار سطحيًا أيضًا) . انتهى .

فمن أية السبل يأتى الإيمان برأى من الآراء الإلحادية لباحث فى الطبيعة ، فتعريف الدكتور كاتب المقالة بأن الإيمان بوجود سبب الكون فى الكون ذاته ، وأن ليس ثمة شىء وراء هذا العالم ، تعريف معيب من الناحية العلمية المحضة ، وأدخل منه فى العيب قوله : (فأنا لا أفترق من هذه الناحية (يريد ناحية الإلحاد) عن المؤمن المتصوف فى إيمانه) ، فهذا تعبير بعيد كل البعد عن التحوط العلمى ، فإن العالم يجب أن لا يكون واقفا هذا الموقف حيال

مـدركات يقـول عنها مثل (هنـرى بوانـكاري) : إن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها ، وتاريخ العلم يبرر هذا التحفظ .

هل كان الفيلسوف [كنت] ملحدا؟

نقل الدكتور كاتب الرسـالة عن الفيلسـوف الألمانى (كَنْت) قولـه : (إنــه لا دليل عقلــى أو علمى على وجــود الله) وإنه (ليس هنالــك مــن دليل عقلــى أو علمى علــى عدم وجــود الله) ، ثم قال الدكتور عقب ذلك :

(وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسـفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية، يتابعه فيه جمهرة الفلاسـفة، وقـول (عمانويل كانت) لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتينى منذ ألفى سنة) .

وأنــا أقـول : لا أظـن أن الدكتـور صاحب الرسـالة يجهـل تاريخ الفيلسـوف الذى يصفه بأنه أعظم فلاسـفة العصور الحديثة، إن هذا الفيلسـوف كان من أكبر المؤمنين بـالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمى والفلسفى جاء عنه فى قاموس لاروس ما يأتى :

(شرع الفيلسوف كَنْت فى إصلاح مجموع المعارف الإنسانية، فبدأ عمله على أسـلوب التشـكك، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسـطة العقل العملـى، والناموس الأدبى، واسـتنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح) .

وهــذا مــا تعرفه الفلسـفة عنه، فمــن أين أتى حضـرة الدكتور بأنــه قال إنه لا دليل ســواء أكان عقليًا أم علميًا على وجود الله، لا أسـتطيع أن أقول إنه تقول عليه، ولكنى أقول إنه اقتضبه اقتضابا من كلامه فأوهم غير ما يرمى إليه الفيلسوف من مراده .

ثم عقب الدكتور على ذلك بقوله :

«الواقــع الذى ألمســه أن فكرة الله فكـرة أوليــة، وقد أصبحت من مسـتلزمات الجماعات منذ ألفى ســنة، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنــان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسـفية أو مكانها فى عالم

الفكــر الإنســانى لا يرجع لمــا فيها مــن عناصر القــوة الإقناعية الفلســفية وإنمــا يعــود لحالــة يســميها علمــاء النفــس التبريــر Racionation ، ومــن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبــات وجود الســبب الأول قيمة علميــة أو عقليــة. ونحن نعلم مــع علماء الأديان والعقائد أن أصل فكــرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شــقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى نخلعها عليها» انتهى.

ونحــن نقول: إن هذا الــكلام ليس عليه أقل عبقــة من اللهجة العلميــة، كأن كاتبه لم يقرأ تاريخ العالم ولا تاريخ العلم فإن قوله إن العقيدة بالله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة، خطأ عظيم، فإن هذه العقيدة صحبت الإنســان منذ نشــوئه، حتى قــال المنقبون فى الحفريات إنهم لم يشــاهدوا آثارًا تحت الأرض لجماعة من الجماعات المتغلغلة فى القدم تدل على أنها كانت لا تدين لدين ما. ولكن الأمر على العكس، فإن كل الآثار التى عثروا عليها تدل على وجود العقيدة لدى تلك الجماعات.

فمــا معنى قول الكاتــب بعد هذا التقرير العلمــى: إن العقيدة بــالله لــم تصبح من مســتلزمات الجماعات إلا منذ ألفى ســنة؟ إن الأحجار المنقوشــة فى الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون، وكان للدين السلطان المطلق عليها حتى كان الحكم فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والرهابين.

وأمــا قولــه: إن مقام فكــرة الله الفلســفية أو مكانهــا من عالم الفكــر لا يرجع لمــا فيها من عناصر القــوة الإقناعية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير.

فنــرد عليــه بأنــه إذا كانت العقيــدة الإلهية تســلطت على عقول

الناس من أقدم العصور، حتى عقول العلماء وكبار المفكرين، يمكن أن توصف بأنها مجردة من عناصر القوة الإقناعية، فأى عقيدة بعد ذلك يتصور أن تكون حاصلة على تلك القوة؟

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية، وأعظمها سلطانًا على النفس البشرية، ويزيدها الشعور الوجدانى الذى لا سبيل إلى عدم الاعتداد به. ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة: ماذا أنا، وأى شىء أوجدنى وأوجد هذا العالم؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلى والوجدانى عقب هذا السؤال كما يأتى: لا بد أن يكون قد أوجدنى موجد قادر هو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضا.

هذه كانت البداهة العقلية والوجدانية التى لا تعارض، ولكن الفلسفة منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة هى التى حاولت أن تتشكك فى هذه البداهة، فحاولت تعليل وجود الخليقة بذاتها بغير حاجة لموجد أزلى حكيم. ورغما عما بذلته تلك الفلسفة المادية منذ تلك القرون من الجهود الشاقة فإنها لم تتوصل أن تفتن إلا عقولا قليلة، وبقيت جماهير الخليقة تحت سلطان تلك العقيدة، بل بقيت عقول تعتبر من أرقاها طرازًا تحت ذلك السلطان نفسه.

فهل يعقل أن وضعة الفلسفة: فيثاغورس [٧١] وسقراط [٧٢] وأفلاطون، وأرسطو، وكل من جاء بعدهم إلى العصور الحديثة

---

(٧١) فيثاغورث (٥٨٢ – ٥٠٧ ق. م) فليسوف يونانى. أسس جماعة دينية كانت تؤمن بتناسخ الأرواح، وضرورة الحياة المطهرة من الشهوة. وركز على أن جوهر الأشياء هو العدد، أى أن الجانب الكمى هو لب الحقيقة، و أن الغاية من الرياضيات والموسيقى هو بلوغ الانسجام بين الروح والجسد. وله نظرية هندسية مدونة باسمه.

(٧٢) سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق. م) فيلسوف يونانى. هو أستاذ أفلاطون، الذى دون حياته وتعاليمه فى (المحاورات). ومحور فلسفته أن هناك حقائق عقلية ثابتة يمكن استنباطها من الحالات الجزئية المتغيرة. ولقد تصدى للسوفسطائيين. وانتهى أمره إلى أن اتهم بإفساد عقائد الشباب، فحكم عليه بالموت.

مـن صاغة الأصـول الأولية، أمثـال بيكـون (٧٣) واضع الدسـتور العلمى، وديكارت مصلح الفلسفة، وعمانويل كنت منقح العلوم الإنسـانية، وروسـو (٧٤) وفولتيـر (٧٥) إمامى النقد الفلسـفى، وبرغسـون (٧٦) زعيـم الفلسـفة الوجدانية فى العصـر الحاضر، هـل يعقل أن هذه العقول الجبارة كلهـا لم تدرك أن فكرة الله وهم بحت، وأنها مجردة من عناصر القوة؟.

اللهـم إن أحدًا لم يجرؤ على اتهام هـؤلاء وأمثالهم بالغباوة إلى الحد الذى يدفعهم إليه صاحب رسالة (لماذا أن ملحد).

قـال حضـرة الدكتور فى تلـك الفقرة: إن كل الأدلـة التى تقام لأجل إثبات السبب الأول ليس لها قيمة علمية أو عقلية.

نقـول: كيف يمكن أن يروج مثل هـذا القول فى العقول، والبحث عن السـبب الأول أمـر لا بد منـه، وإثبات وجـوده لا معدى عنه فـى عصر من العصـور، وإن كان بعضهم يعتقد بأن هذا السـبب قـادر حكيم، وبعضهم يراه وجودًا ماديًا محضًا. فإن كان مراده أن يقول إن إثبات أن ذلك السـبب

---

(٧٣) بيكـون - روجـر (١٢١٤ - ١٢٩٤م) فليسـوف وعالم إنجليـزى. أتقن العبرية واليونانية، وربمـا العربية. انطلق من فلسفة اليونان والمسيحية والتراث الإسلامى ليضـع فلسفته القائمة على أن اليقـين سبيله التجربة وحدهـا. ورأى أن الحكمة والإيمان شىء واحد.

(٧٤) روسـو - جان جـاك (١٧١٢- ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسى. أحد فلاسفة موسوعة التنويـر الأوربى. لـه تأثير كبير فى مختلف ميادين الفكر والسياسة والأدب والتربية. وهو رائد الرومانسية الحديثة.

(٧٥) فوليـتر - فرانسـوا (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) فيلسوف ومفكـر فرنسى. من مشاهير فلاسفة التنوير الأوربى. كتب فى الأدب والتاريخ والفلسفة. وله كتاب عن جان دارك، ومسرحيـة عن رسول الإسلام محمد -ﷺ- كمـا شارك فى دائرة المعارف الفرنسية. وله نقد لرجال الدين الكاثوليك. جمعت أعماله فى سبعين مجلدا.

(٧٦) برغسـون - هنرى (١٨٥٩ - ١٩٤١م) فليسوف فرنسى. دافع عن الروحانية ضد المذاهـب الوضعية والمادية، ترك آثاره فى أدباء عصره. ومن أعماله: (المحاولة فى درس أوضاع الوجدان) و(المادة والذاكرة) و(التطور المبدع). نال جائزة نوبل ١٩٢٧م.

قادر حكيم ليس له قيمة علمية أو عقلية، فذلك حكمه الشخصى، ولكن جميع من ذكرناهم من وضعة الفلسفة ومصلحيها قد رأوا أن لها أعظم قيمة علمية وعقلية، وأثبتوها فى مولفاتهم الخالدة. والعقول بطبيعة الحال تنساق وراء كبار الأعلام فى هذا الشأن، وهو نفسه لا يستطيع أن يصفهم بغير هذا الوصف، فقد ذكر واحدًا منهم وهو (عمانويل كنت) فوصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة، وواضع الفلسفة الانتقادية، وقد أثبتنا لك بنص تاريخى أنه توصل من أسلوبه النقدى إلى إثبات الله وخلود النفس، وله فى ذلك كلام ممتع وقس عليه سواه ممن ذكرناهم هنا.

وقال الدكتور فى تلك الفقرة أيضًا: إن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وإن الذى ولدها للإنسان الخوف والجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، وإن معرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها.

نقول: أما أن هذه الفكرة قد تطورت فهذا لا يستدعى العجب، فإن الجاهل يخلع على تصوراته خلعة من أوهامه وأهوائه، وكلما ازداد علما أزال طائفة من تلك الأوهام والأهواء حتى ينتهى إلى إزالتها كلها وتبقى العقيدة خالصة من كل شائبة.

فأى بأس فى هذا على قدسية هذه العقيدة؟ أليس هذا كان حال الإنسان من جهة العلم والحكمة والحق والعدل والشرف والكرامة إلخ، مما يضحى الإنسان بحياته فى سبيله؟ فهل يسقط من قدسية العلم والحكمة أنهما تطورا فى عقل الإنسانية من حالات بدائية؟ وهل لهذا السبب يجب علينا أن ننكر وجود العلم والحكمة وكل هذه الحالات الكريمة؟.

وهل أعلام العلم والفلسفة ممن ذكرناهم، ويطول ذكر غيرهم، لم يدركوا أن تطور فكرة الله تذهب بقدسيتها كما أدركها الدكتور كاتب الرسالة، فلم لم يحتقروا هذه الفكرة لهذا السبب وكلهم أفاض فى ذكر الأطوار التى دخلت فيها على مدى العصور والأجيال؟.



هل السبب الأول للكائنات هو الخبط والاتفاق؟

قال الدكتور كاتب الرسالة : «إن العالم الخارجى - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال probability، فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث. والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث».

ثم ذكر أنه عمل مذكرة بهذا الموضوع لمعهد الطبيعيات الألمانى عن المادة وبنائها الكهربائى وقال : «وفى هذه المذكرة أثبت أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة، فإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهاية، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة».

ثم قال : «ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

«يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه Science et methode فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف : «إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

«والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده. ثم قال : «غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى (Mathematic und physik) ج ٢ فصل ٧».

ثم مثل لنظريته بمثال فقال :

«لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه. ثم قال : «وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها».

ثم قال : «فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة، أعنى

بنسبة ١ : ٣٦ مرة، ففى الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجيء الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شيء».

«إذا يمكننا إن نقول إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم، تعطى حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم .. وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان الذي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى، ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية، فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع)، وكذا (القرآن) مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزًا لحالة احتمال و(ص) رمزًا للّانهاية، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات :

ح : ص «وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة» انتهي

ونحن نقول: إذا كان القارئ سواء أكان باحثًا طبيعيًا أم عالمًا رياضيًا قد آنس فى كلام الدكتور كاتب الرسالة غرابة وخروجا عن المألوف، ومنافاة لكل ما نقل عن أقطاب العلوم، وأركان الرياضيات، فإن الدكتور نفسه يعترف بذلك، فهو يقول إن نظريته هذه مبتكرة ظهرت فى عالم التفكير العلمى لأول مرة، فقد قال: «إنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقًا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى (mathematik und plysik) ج ٢ فصل ٧».

قال ذلك عقب إيراده قول العلامة الكبير (هنرى بوانكاريه) الفرنسى وهو قوله: «إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

وعقب على كلمة الأستاذ بوانكاريه بقوله: «والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده».

وهذا اعتراف من الدكتور بأن كل العلماء متفقون على أن لا خبط ولا اتفاق فى حوادث الكون، ولكن الدكتور وحده قد أدرك أنهم كلهم واهمون، وأن الخبط أو كما يسميه (الصدفة) هى الناموس الأعظم الذى أوجد الكون، وهى التى تسود جميع انقلاباته إلى اليوم.

ولما كان الدكتور يعتبر نفسه صاحب مذهب جديد فى العلم، فهو لا يخشى أن يعرض للقراء آراء كبار الرياضيين المناقضين له. فنقل عن العلامة العبقرى إينشتين أكبر أعلام الرياضيات فى هذا العصر قوله:

«مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ فى مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضًا لا يصل لكنهه، هذا الشىء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه. كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضًا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشىء هو الله»..

ونقل أيضًا عن العلامة الجليل السير (جيمس جينز) الفلكى الإنجليزى قوله:

«إن صيغة المعادلة التى توحد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لبابه. ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون، وتربطها فى وحدة عقلية، فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية؛ ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن

عقـل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجـع له هذا الكون ، هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله» .

نقـل الدكتـور هذيـن القولين وعقـب عليهمـا بقولـه : «وأنت ترى أن كليهمـا (والأول مـن أسـاطين الرياضيات فى العالـم ، والثانى فلكى ورياضى من القدر الأول) عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشـاملة ، والتى يتبع دسـتورها العالم ، لا لشىء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما » .

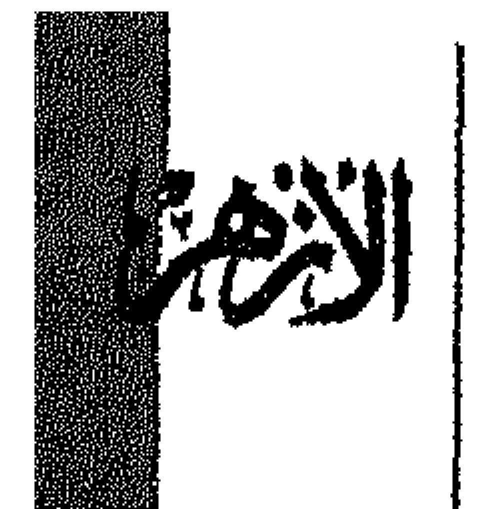
وقد سبق له أن نقل رأى الرياضى الفرنسى الكبير (هنرى بوانكاري) فى نكران الخبط والاتفاق (أى الصدفة) .

وعقـب عليه بقوله : «الواقـع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقـاده ، غير أنى مـن وجهة رياضية أجد للصدفة معنـى غير هذا ، معنى دقيقًا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى» .

فـإذا كان الأمر كما ذكر فيكون مـن العبث المحض أن ننقل إليه آراء رياضيـى العالـم كله فى إنكار وجود الخبط فى الطبيعـة ، وفى أنها قائمة على نظام حكيم ، فلابد لنا من أسلوب آخر فى دحض أقواله .

إن كاتب الرسـالة لم يكتف بتخطئة أقطاب الرياضيين الذين ذكرهم فى فهم نظام التكوين العالمى ، ولكنه يتبرع فيشـرح وجه خطئهم ، فقد قال :

«الواقع أن أينشـتين فى مثاله انتهى إلى وجود شـىء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه - مؤلفه - والواقع أن هذا احتمال محض ، لأنـه يصـح أن يكون خاضعًا لحالـة أخرى ، ونتيجة لغيـر العقل (كذا) ، ومثلنـا عـن المطبعة وحروفهـا ، وإمكان خروج الكتـب خضوعًا لقانون الصدفة الشـامل يوضح هـذه الحالة (كذا) . أما ما يقوله السـير جيمس جينـز ، فرغم أنـه أخطأ فى اعتبـاره الرياضـة طبيعة الأشـياء ، لأن نجاح الوجهـة الرياضية فـى ربط الحوادث وتفسـير تصرفاتهـا لا يحمل على أن طبيعـة الأشـياء رياضية ، بل يـدل على أن هنالك قاعـدة معقولة تصل



بينه وبين طبيعة الأشياء، فالأشياء هى الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة. وبعبارة أخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه. ومن هنا يتضح أنه لا غرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه، بل كل الغرابة فى عدم انطباقها، لأن لكل كون رياضياته المخصوصة. فكون من الأكوان مربوطًا بالرياضيات شرط ضرورى لكونه كونا. من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية فى العالم. وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم، وهذا خطأ، لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعًا لنظام ما هو ممكن، فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل» انتهى.

يريد كاتب الرسالة مما مر أن يقول إن المثال الذى ضربه بالمطبعة ذات المليون حرف، وإمكان خروج الكتب منها خضوعًا لقانون الصدفة الشامل بدون الحاجة لعقل، يكفى لبيان ما يشكل على العلماء فى هذا المجال.

فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضى شامل لانسجامه مع العلم الرياضى الإنسانى، خطأ محض. فإن ترابط حوادث الكون، وتصرفها على قانون رياضى لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية كما يقول: لأنه بعد أن يتوصل قانون (الصدفة) الشامل، فى رأيه، إلى إنشاء كون من الأكوان يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرطًا ضروريًا لكونه كونًا ومن هنا أخطأ، كما يدعى، أقطاب الرياضيين فى اعتبار أن الطبيعة تجرى على نظام رياضى دقيق. والحقيقة أنها تجرى على نظم الخبط، ومن هذا الخبط تتولد الأكوان ذات النظم الرياضية الدقيقة.

هذا مذهب غاية فى الغرابة، فلا عجب أن ينفرد بالقول به واحد فى

الخلق ! ولكن هذا لا يكفينا مؤنة مناقشته الحساب، حتى لا يخيل إليه أن العقول تعجز عن بيان خطئه فيه.

مناقشة هذه النظرية الإلحادية الحساب:

ليس من الحكمة أن نعتمد فى مناقشة صاحب هذه الرسالة على إيراد آراء علماء الكون سواء أكانوا رياضيين أم طبيعيين أم فلكيين، لأنه يعترف بأن إجماعهم انعقد على أن للكون نظامًا أزليًا، وأنه جاء على وتيرة رياضية فى جميع أدواره، وأنه منزه عن الخبط والاضطراب فى جميع مكوناته. ولكن الذى يجدى فى هذه القضية هو مناقشته الحساب فى مفهوم نظريته، وفى الأصول التى أقامها عليها إن كان لها أصول، فنقول:

[أولاً] إن ما يقرره الدكتور من عالم الخيال المحض لا من عالم العلم، حمله عليه شدة تهيامه بإبطال العقيدة بالخالق، ولكن تهيام الإنسان بنفى أصل من الأصول، لا يجوز أن يدفع به إلى متاهات يتجرد فيها من كل قوانين المنطق، جريا وراء هوى من الأهواء النفسانية.

نعم إن العالم مع اشتغاله بالواقع المحسوس يسمح له أن يخترق بخياله ما وراءه ليصل إلى السبب الأول الذى لا تناله المشاهدة ولا تبلغه التجربة، ولكنه لا يسمح لنفسه أن يفعل ذلك إلا مستهديا بما بين يديه من الأصول، ومحوطا بما يمكنه أن يحصل عليه من المرجحات.

فإذا كان العالم يرمى ببصره إلى أبعد ما تصل إليه قوى التلسكوب فلا يصادف غير نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضى، فلا حق له أن يستنتج منه أن العوامل التى صدر عنها الكون لا يسودها غير الخبط المحض؛ لأن سيادة النظام الرياضى الآلى فى كل مكان لا يسمح له بذلك، ولكن يوجب عليه ضده، وهو أن الكون يجرى على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام إلى أقصى ما يتخيله التصور.



وجميـع ملاحدة العالـم قديمًا وحديثًـا بنوا إلحادهم لا على أن العامل الرئيسى هو الخبط، لأنهم لم يروه، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصـدر عنـه إلا مـا هو آلى منتظـم كل الانتظـام. فقد قـال بوخنر إمام الملحديـن: «مـا دمنا لا نرى فـى كل مكان غير نواميـس منتظمة تصدر عنهـا كائنـات منتظمة، فلا داعى يدعونا إلى افتراض وجود سـبب عاقل أوجده»، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها. ولكن بوخنر لا يسـتطيع أن يقـول كما يقول الدكتور صاحب الرسـالة: أنه ما دمنـا لا نـرى إلا نواميس منتظمة فلا مانع يمنع أن تكـون هذه النواميس حالة لكون منتظم أوجده سبب أول هو ناموس الخبط المحض.

وما الذى يحملـه على التجرؤ على هذا الافتراض، ولم ير فى الوجود كلـه ركنا منعـزلاً يعمل فيه ناموس الخبط، وتنتـج منه كائنات منتظمة، تخرج بحكم نظامها من سـيادته عليها وتصبح مسـتقلة عنه، توهم أنها صادرة من أصول رياضية دقيقة، ونظام آلى محكم؟

إن كل مـا وصل إليه خيـال المتخيلين فى أمر الخبـط من الملاحدة، أنهم قالوا إن الكون محكوم من أزل الآزال بقوانين محكمة الوضع، وهى دائبـة علـى العمل بغير قصد، فتـارة ينتج عنها كائنـات منتظمة وأخرى شـاذة، ولكنها لقيامهـا على النظام لا تزال بهذه الشـواذ حتى تبيدها أو تحيلهـا إلى النظـام المحكم، ولذلك ترى كل كائنـات الوجود محكمة الصنع.

إذا تقرر هذا فعلى أى أساس استند الدكتور فى تخيل أن السبب الأول للوجـود هـو الخبط المحض، وليس فى الوجود ما يمكن من الاسـتدلال بـه عليـه؟ وكيف يأمـل أن يبث دعـوة خيالية محضة لا تسـتند على أى أصل من أصول العلم، بل على أى خيال من خيالات أصحاب الفلسـفات الإلحادية؟

أليس انفراده بالقول الذى أورده، وهو يعترف بذلك، يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه، بل القذف به إلى عالم المهملات؟

يقول إنه أرسل مذكرة علمية برأيه هذا لمعهد الطبيعيات الألمانى فى سنة ١٩٣٤م، ولا عبرة بإرسالها فقد مضى عليها ثلاث سنين ولم يتلق عنها تأييدا إلى اليوم، ومعنى ذلك أنهم أهملوا أمرها وعدوها من الخيالات، وإلا فقد كانوا يملئون الصحف بإشاعتها والمناقشة فيها ككل الآراء الجديدة التى يتخيل من ورائها زيادة لمادة العلوم.

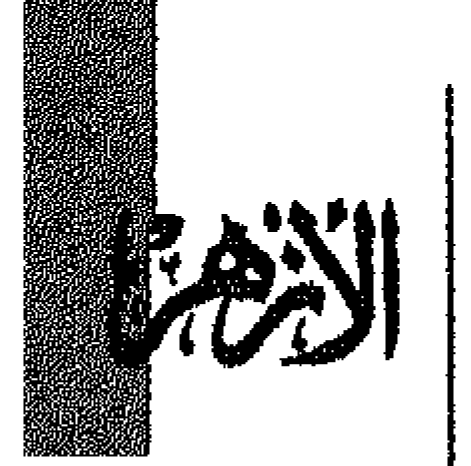
[ثانيا] هل تصح تسمية الخبط بالقانون؟

يعبر الدكتور عن رأيه فى الخبط بقوله: (قانون الصدفة الشامل) فهل تسلم له هذه التسمية؟ المعروف أن الخبط، وهو يسميه الصدفة- هو اللانظام المحض، والفوضى المجردة من كل قانون وضبط، فهو يتخيل أن القوى العالمية كانت على حالة تخبط هائل، فصدر عنها على مقتضى قوانين الاحتمال، كون منتظم بديع الصنع هو ما نحن فيه، وما عليه العالم إلى أبعد ما يصل اليه التلسكوب. فهل يحق له وقد اعتبر القوى العالمية فى حالة فوضى وتخبط أن يتخيل وجود قانون يسيطر عليها؟ وهل هذا القانون من الكون أم خارج عنه؟

إن الكاتب قد أكثر من ذكر قوانين الاحتمال، ولكنها عندنا لم تسم بالقوانين إلا لأنها تطبق على موجودات منتظمة، وقد اكتشفها الفلكى لابلاس [٧٧] للترجيح لا للجزم، ورتبها على حوادث جارية على النظم الطبيعية المقررة، لا على حوادث خيالية لا وجود لها. فكيف يطبق حساب الاحتمال العلمى على عالم الخبط المحض الذى لا أثر للنظام فيه، ولا قيام لكائن منتظم معه؟ وإذا كان الوصف المميز للخبط هو خلوه من كل قانون، فكيف يلحق به نظام رياضى محض كحساب الاحتمال القائم على قوانين ثابتة، ونظم مستقرة؟ من العالم المحسوس

---

(٧٧) لابلاس – بييرسيمون (١٧٤٩ – ١٨٢٧م) فلكي ورياضي فرنسي: اشتهر بفرضيته القائلة: إن أصل النظام الشمسي ضباب سديمي. قام بتحسين نظرية الاحتمالات. وأسهم في تأكيد نظرية الجاذبية.



الذى يعترف الكاتب بأنه قائم على أصول رياضية ؟

يضرب الكاتب لمراده مثلا بوجوه زهر الطاولة ، ويقرر أن الدش لابد من مجيئه مرة في كل ست وثلاثين رمية للزهر . ويغفل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسى وأعدادها معينة مكتوبة ، وهى بجملتها موجودة فى عالم آلى يسوده النظام فى كل ذرة من ذراته ، فلا بدع أن تسرى عليه قوانين الاحتمال ، ولكن عالم الخبط الذى لا أثر للعدد فيه ، ولا صورة متعينة لشىء من أشيائه ، ولا وجود للقوانين فيه ، كيف يطبق عليه عمل رياضى قائم على أصول مقررة فى عالم تسوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخبط ؟

[ثالثا] هل يعقل صدور النظام فى الخبط العام بدون سبب خارجى؟

إن ما يذكره كاتب الرسالة الإلحادية من تعليل وجود الكون من طريق الخبط والاتفاق يجب أن يسبقه تصور لذلك العالم .

فإذا أخذ آخذُ بنظريته وجب عليه أن يعتقد أن العالم محدث غير قديم ، خلافا لرأى جميع الملحدين ، وأن العالم لم يكن فيه غير قوى لا ضابط لها ولا منظم من أى نوع كان ، حتى ولا من نوع النواميس الأزلية الأبدية التى يتخيلها الملحدون .

فإن قال بوجود نواميس فى ذلك العهد لم يصدق على العالم أنه كان عالم خبط واتفاق .

فمثل هذا المحيط اللانهائى من القوى الثائرة المتخبطة المنحلة النظام ، لا يعقل أن يتولد فيه نظام على وجه الإطلاق . وقد لاحظ أقطاب الملحدين هذا الأمر فقرروا أن القوى العالمية مقودة بنواميس أزلية غاية فى الإحكام ملازمة لها ، وليست فوضى ولا متخبطة افترضوا هذا خشية أن يعترض عليهم بمثل ما نعترض به على كاتب الرسالة اليوم ، من أن الخبط لا يعقل أن يولد نظاما ، فتبطل حجتهم ، ويزدرى الناس مذهبهم .

ولكن كاتب تلك الرسالة يقول : بلى إن قوانين الاحتمال تسمح أن

نتصور صدور الكون المنتظم، المقود بنواميس حكيمة، من صميم هذه القوى العالمية المتخبطة.

يقول هذا ويغفل أن فى قوله قوانين الاحتمال تناقضا لا يسيغه عقل عاقل فى الأرض، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق فى العالم تنفى وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه.

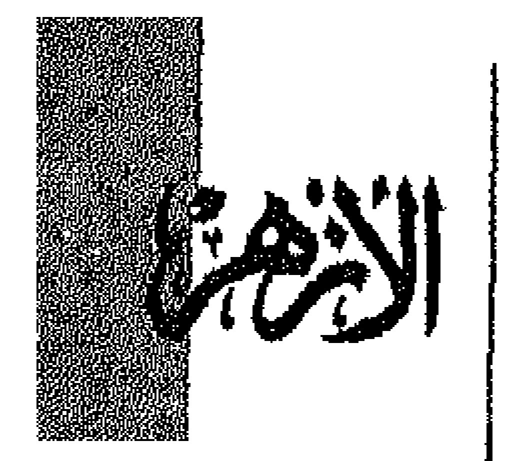
إنه قال كما نقلناه عنه: «إن العالم الخارجي- عالم الحادثات- يخضع لقوانين الاحتمال». فهل غاب عنه أن ما يصدق على عالم الحوادث الطبيعية المقودة فى كل ذرة من ذراتها بنواميس محكمة، لا يعقل أن يصدق على عالم خبط واتفاق ليس فيه حوادث مترابطة ولا قوانين تسود عليها؟ وإذا استساغ أن يعتقد أن ذلك العالم المتخبط توجد فيه قوانين الاحتمال، فما الذى يمنعه أن يعتقد بوجود كل ضروب النواميس فيه؟

فلو سلمنا له جدلا أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن توجد كائنا منتظما، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية الثائرة من حوله تدعه يتكون فى هدوء وسكون، ولا تعدو عليه فتفسده قبل أن يتم تكونه؟ ما الذى يمنعها من العدوان عليه، بل ما الذى يمنع قوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم بجواره يناقضه ويحرمه أن يتطور إلى أن يبلغ حد الكمال؟

إذا لم يستطع أحد أن يسيغ تصور هذا، فهل يسيغ أن تترك القوى الثائرة المتخبطة، حرية العمل لقوانين الاحتمال، حتى تولد ملايين من مجموعات شمسية تملأ فضاء لا حد له تسودها قوانين عامة واحدة، لا يختل لها نظام فى عدد لا يحصى من ملايين السنين، ولا تعدو عليها فتجعلها حطاما متناثرا فى الهواء؟

هنا يحتاج الآخذ بنظرية الخبط العام أن يتخيل أن القوى العالمية كانت فى حالة سكون تام لا فى حالة ثوران، فإذا تفضلت قوانين الاحتمال أن توجد كونا أو أكوانا كثيرة، تركتها تلك القوى أن تفعل ما تشاء.

ولكن هذا الخيال يؤدى صاحبه أن يعتقد بأن القوى فى عالم الخبط



العام مجردة من الحركة والتأثير فيما حولها . وإذا كانت كذلك فكيف يتصور أن تسود عليها قوانين الاحتمال ؟

لقد شبه الكاتب عمل قوانين الاحتمال بحركة زهر النرد ، ولكن غاب عنه أن زهر النرد إذا لم يتحرك فلا يعقل أن يأتي الدش منه في كل ٣٦ رمية مرة واحدة ، بل يبقى على ما هو عليه إلى الأبد .

وعليه فلا يعقل أن تكون القوى كانت ساكنة ، فلابد أنها كانت في حالة حركة لا ضابط لها ، ثم يصبح لها ضوابط متى آلت إلى كائنات بواسطة قوانين الاحتمال . وإذا كانت كذلك فكيف لا تعدو القوى المتخبطة العامة على أي جزء منها ، فترفع عنه تأثير قوانين الاحتمال ؟ أي مانع يمنعها من ذلك وهي محيطة بها من كل مكان ؟

وكيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة ، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس ، ومن أي ضابط كان ؟

يقول كاتب الرسالة : لا غرابة في ذلك فما دام قد وجد كون فإن ضبطه بالرياضيات شرط ضروري لقيامه على حالة كون قائم بنفسه .

نقول في هذا القول تحكم يتنزه عن مثله أهل العلم ، فإذا سلمنا جدلا بأن قوانين الاحتمال أوجدت مجموعة شمسية ، فما الذي يوجب عليها أن تجعلها على نظام رياضي دقيق ، وأن تحيلها بجميع النواميس المحكمة التي لا تكفي فقط لتماسك أجزائها ولكن لتحيلها بنواميس أخرى تصلح لتكوين كائنات نباتية وحيوانية عليها ، ولدفع هذه الكائنات للتطور والترقي حتى يبلغ بعض آحادها إلى درجة عالية من إدراك الذات والتعقل ؟

وإذا اتفق ذلك لمجموعة شمسية ، فهل يتفق مثله لملايين المجموعات الشمسية السابحة في الفضاء ، وعلى أبعاد لا يصل إليها الوهم ، وتكون كل هذه القوانين واحدة فيها ومتكافلة فيما بينها إلى هذا الحد المحير للعقل ؟

لم هذا التحكم كله ؟ أَلأَجْلِ القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لا

ضابط لها؟ وأي فائدة للإلحاد من هذا الافتراض، وقد أساغ الملحدون وجود نواميس محكمة ملازمة للقوى العالمية من أزل الآزال؟

إن هذه الثمرة الضئيلة لا تساوى أن يتعسف الإنسان هذا التعسف كله ليثبت أمرا لا يسيغه عقل فى هذا العالم.

نعم إن بناء النظريات الجديدة أمر محبب إلى النفوس، تنساق إليه الفطر ذات المطامح البعيدة، ولكن لو كانت هذه الشهوة النفسية تدفع إلى مثل هذه المواطن من الخيالات فيجب وقفها عند حد، فإنها تصبح مذمومة، ولا يجنى صاحبها من ورائها غير الخيبة وسوء القالة.

ولكن يلوح لنا أن الذى حفز كاتب الرسالة لأن يدفع بنفسه إلى هذه المهمة من الخيال المحض، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة من الإيرادات، فقد قيل لهم إن ما تقررونه من وجود تلك النواميس الرياضية المحكمة ملازمة للهيولى الأولية، هو مظهر الحكمة الإلهية، وإلا فكيف يعقل وجود قوى منتظمة، تؤدى إلى كائنات غاية فى الإبداع، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها؟

أراد صاحبنا أن يتقى هذه الإيرادات فقفز قفزة خيالية بحتة يرد عليها من الاعتراضات أكثر مما يرد على تلك، ويكون موقف المنابذ لها أشد حصانة ومناعة من موقفه حيال جميع النظريات الإلحادية مجتمعة.

قصة المطبعة ذات المليون حرف:

قال كاتب الرسالة:

«إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموع من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات تتداخل وتتناسق، ثم تنحل وتتباعد، لتعود من جديد وتنتظم، وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى. مثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف. وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل، هكذا فى دورة لا نهائية.



فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهاية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذا «القرآن» مجموعا منضدا مصححا من نفسه «كذا»، ويمكننا أن نتصور أن المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية» اهـ.

ونحن نقول ردا على هذا الكلام:

إن من الابتلاء المر أن يضطر الإنسان فى يوم من الأيام للدفاع عن رأيه بمثل هذه الأقوال التى تشذ عن كل قاعدة عقلية وعلمية. وقد فندنا كل ما ذكره الكاتب مما سماه قانون الصدفة الشامل، وبينا تنافيها مع قوانين الاحتمال بما لا مزيد عليه.

والآن نتصدى لتشبيهه فعل قانون «الصدفة» وما تخضع له من قوانين الاحتمال بمطبعة ذات مليون حرف، لكل من وحدات الأبجدية، وقد درج الناس إذا ابتلوا بأقيسة فاسدة على أن يقولوا: هذا قياس مع الفارق. ولكنا مضطرون حيال ما نحن بصدده أن نقول: هذا قياس مع كل ما يتخيل من الفوارق.

فكيف يسوغ لباحث أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون، المجردة من كل ضابط، كما يفترضها الكاتب، بآلة ميكانيكية كالمطبعة قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة، ولها قطع منقوش على رءوسها حروف تتألف منها كلمات، وهى مفصلة تفصيلاً هندسيًا، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض فتؤلف منها صحف، وللمطبعة أسطوانات مكسوة بالغراء تستمد من محبرة بجوارها حبرا تنقله إلى الحروف، بحركات مدبرة تدبيرا محكما. وهذه المطبعة الميتة لا تغنى شيئا إذا لم يكن لها عمال يحركونها، ويدبرون دوراتها، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل؟

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى، بل هو غير جائز أصلا، ومجيئه من باحث ينتمى للرياضيين يزيد فى غرابته، ويجعله أطروفة

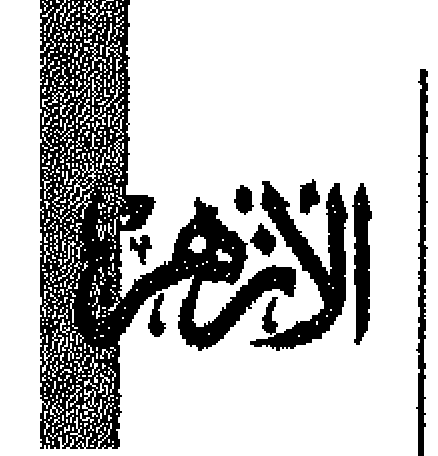
الأعاجيب فى عصر المباحث المدققة، والمقررات المحررة.

وأدخل من كل ما مر فى عالم الأوهام والخيالات، زعم الكاتب أن المطبعة ذات المليون حرف تستطيع تحت تأثير قانون الخبط الشامل، أن توجد جميع المؤلفات التى قام بوضعها العقل البشرى الناقص، أو تنزلت من العلم الإلهى الكامل، فهذا القول لو صدر من جاهل ساذج لا حظ له من أبسط ضروب الثقافة العقلية، لما اغتفر له بحال من الأحوال، وعيب عليه التلفظ به، فما ظنك وهو صادر من رجل يحمل شهادات علمية راقية؟

ومن عجب أن كاتب هذه الرسالة اعتمادا على ما قرره فى أمر هذه المطبعة الوهمية يناقش عباقرة الرياضيين، ويتخيل أنه يلزمهم الحجة، فيعيب على العلامة الكبير أينشتين تشبيهه الوجود بكتاب، وقوله كما أن وراء الكتاب عقلا ألفه، فكذلك الكون يجب أن يكون وراءه حكيم أوجده، يعيب عليه هذا القول ويرد عليه بقوله: «الواقع أن هذا احتمال محض لأنه يصح أن يكون «أى الكتاب» خاضعا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل، ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة» المدهش المحير للعقل فى هذا الرد أنه يعيب على أينشتين قوله إن الكتاب يدل دلالة قاطعة على وجود عقل وضعه، ويدعى أن هذه الدلالة خاطئة، إذ يصح أن يكون نتيجة لغير العقل، أى لقانون الخبط المحض!!

أقسم لولا أنى أنقل عبارات الكاتب لخشيت أن يظن ظان أنى أتقول عليه. فهل يحتاج مثل هذا الخبط إلى رد؟

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف، لأن رسالته تحمل فى ثناياها معاول هدمها، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتى بأشد فعلا منها، ولكنا خشينا أن يتوهم من لا علم له أن هذا الكلام فيه أثارة من علم، لاسيما وهو يقول: «إنها تعطى العالم مفهومًا جديدًا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التى ألفناها. ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها، لأن



التغير الحادث (أى الذى تحدثه) أساسى يتناول أسس التصور نفسه».

فكاتب الرسالة لا يخفى أن كلامه يتعذر فهمه، ولكن لا لأنه وهمى محض، بل لأنه يغير أصول الفهم، ويتناول أسس التصور نفسه، فهو والحالة هذه يتطاول إلى إحداث حدث عقلى، بوضع أسس جديدة للتصور، بحيث يجعلك لو قرأت كتابا لا تحكم بأن عقلا وضعه، لأنه قد يكون (كما يقول هو نفسه) نتيجة لغير العقل، أى لقانون (الصدفة) الشامل، ومعتمده فى ذلك ما مثل به من المطبعة ذات المليون حرف!!

وهذه طامة لابد من مناقشته الحساب فيها، وإنا لسائلوه: هل يستطاع تغيير أسس التصور، وهى ضمن النظام الكونى، وقامت على ما قام عليه الكون كله من الأصول الرياضية الثابتة، والقواعد الطبيعية الركينة، وقد أفنى العلماء أعمارهم فى تأسيسها على ما خلقت له من المنطق العلمى، القائم على اليقينيات العلمية؟ وإذا أمكن ذلك فهل يرجى خير من قلبها وجعلها صالحة للأخذ بكل خيال يقدم إليها، والاعتداد بالافتراضات والاحتمالات التى لا تمت إلى العلم بأوهى صلة، لتجد كل الخزعبلات والأوهام طريقا لإفساد عقول الناس بالأوهام التى لا تصدر عن أصل ثابت، ولا تقوم على أساس صحيح؟

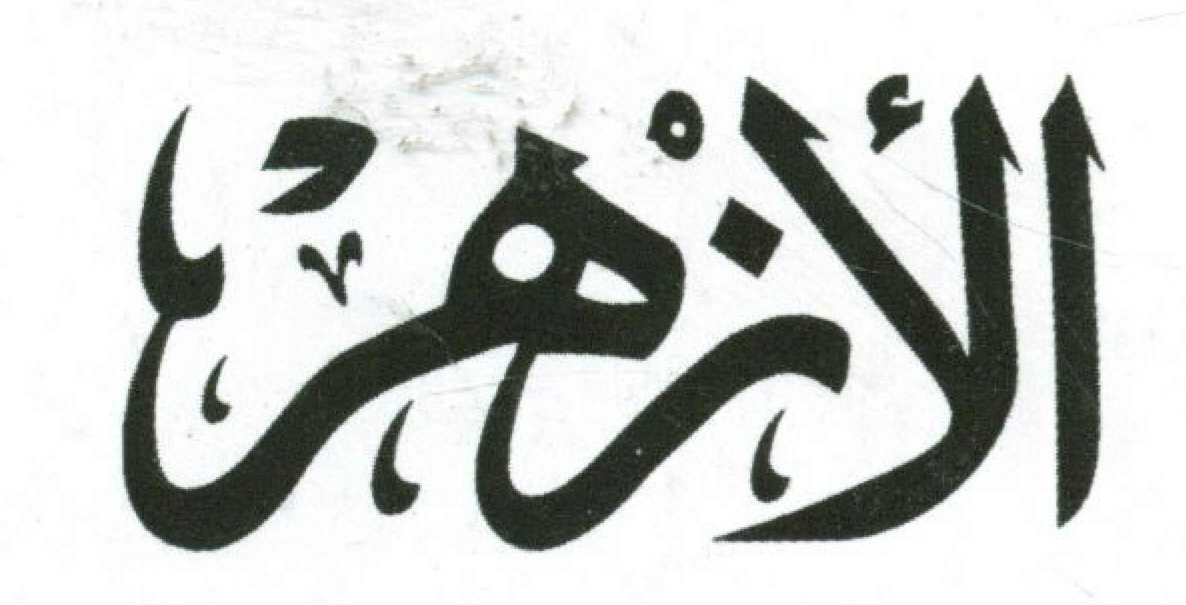
إن تغيير أسس التصور على هذا النحو يعود بالإنسانية إلى العهود المظلمة التى كانت فيها، ويقضى على جميع الثمرات التى حصل عليها مصلحو العلم والفلسفة، ويدفع بالناس إلى متاهات من الخيالات لا يجدون فيه حدا يقفون عنده.

إن اليوم الذى يقرأ فيه الرجل كتابا فيتبادر إلى ذهنه احتمال أن يكون قد صدر عن غير عقل، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال، وأن يكون خرج مرتبا مجموعا مصححا من المطبعة ذات المليون حرف، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الإنسانى قد انحل انحلالا لا يرجى معه التئام، ووصل من عالم الخبط إلى مكان سحيق.

الفهرس

المجموعة الشمسية

موقع عالمنا في فلك مجرة درب التبانة التي تمثل بدورها بقعة ضئيلة تدور في فلك الكون



AL AZHAR
MAGAZINE

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ

www.AlazharMag.com